

❖ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِينِي بِهِ ۚ اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ

أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا

يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ

أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ

إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم

بِمَحَارِزِهِمْ قَالَ أَتُؤْتُونِي بِأَنْحَ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ لَا تَرَوْتَنِي أَتِي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ

﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ ۚ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرْودُّ عَنْهُ

أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ اجْعَلُوا بِضَعْنَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا

أَنْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَيْسِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا

مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَحَفِيظُونَ ﴿٦٣﴾

❖ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِينِي بِهِ ۚ اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ

أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا

يُؤْسَفُ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ مُنْصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا نُضِيعُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها،
و أنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف،

استدركت فقالت: (وَمَا أُبْرِئِي نَفْسِي ۚ)

أي: من المراودة و الهَمِّ، و الحرص الشديد، و الكيد في ذلك.

(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)

أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء،

أي: الفاحشة، و سائر الذنوب،

فإنها مركب الشيطان، و منها يدخل على الإنسان

(إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي)

فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها،

منقادة لداعي الهدى، متعاضية عن داعي الردى،

فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله و رحمته بعبده.

(إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ)

أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب و المعاصي، إذا تاب و أناب،

(رَّحِيمٌ)

بقبول توبته، و توفيقه للأعمال الصالحة،.

و هذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف،
فإن السياق في كلامها، و يوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر.
فلما تحقق الملك و الناس براءة يوسف التامة، أرسل إليه الملك

و قال: (وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتُونِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي^ط)

أي: أ جعله خصيصة لي و مقربا لديّ فأتوه به مكرما محترما،

(فَلَمَّا كَلَّمَهُ)

أعجبه كلامه، و زاد موقعه عنده

فقال له: (قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا)

أي: عندنا

(مَكِينٌ)

أي: متمكن،

(أَمِينٌ)

على الأسرار،

ف—(قَالَ)

يوسف طلبا للمصلحة العامة: (أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ)

أي: على خزائن جبايات الأرض و غلالها، وكيلا حافظا مدبرا.

(إِنِّي حَفِيزٌ)

*** قَالَ شَيْبَةُ بْنُ نَعَامَةَ: حَفِيزٌ لِمَا اسْتَوْدَعْتَنِي

○ أي: حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله،
و ضابط للداخل و الخارج،

(عَلِيمٌ)

*** بِسْنِي الْجَدْبِ.

○ عليم بكيفية التدبير و الإعطاء و المنع، و التصرف في جميع أنواع
التصرفات،

○ و ليس ذلك حرصا من يوسف على الولاية

و إنما هو رغبة منه في النفع العام،

و قد عرف من نفسه من الكفاءة و الأمانة و الحفظ ما لم يكونوا يعرفونه.

فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض،

فجعله الملك على خزائن الأرض و ولاه إياها.

*** مَدَحَ نَفْسَهُ، وَ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ ذَلِكَ [إِذَا جُهِلَ أَمْرُهُ] لِلْحَاجَةِ.

قال تعالى: (وَكَذَلِكَ)

أي: بهذه الأسباب و المقدمات المذكورة،

(مَكَّنَّا يُوْسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ)

في عيش رغد، و نعمة واسعة، و جاه عريض،

(نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ)

أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها و قدرها له،
و ليست مقصورة على نعمة الدنيا.

(وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

و يوسف عليه السلام من سادات المحسنين،
فله في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة،

و لهذا قال: **(وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ)**

من أجر الدنيا

(لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

أي: لمن جمع بين التقوى و الإيمان،
فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب و صغائرها،
و بالإيمان التام يحصل تصديق القلب،
بما أمر الله بالتصديق به، و تتبعه أعمال القلوب و أعمال الجوارح،
من الواجبات و المستحبات.

*** يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَا ادَّخَرَهُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ يُوسُفَ عليه السلام فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ
أَعْظَمُ وَ أَكْثَرُ وَ أَجَلُّ، مِمَّا خَوَّلَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَ النُّفُودِ فِي الدُّنْيَا

كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ سُلَيْمَانَ، ﷺ: { هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ } [ص: 39، 40] .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ
بِحِمَارِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ لَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ
﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرِدُ عَنْهُ
أَبَاهُ وَإِنَّا لَنَنعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا
أُنْقَلِبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا
مَنْعَ مَنَا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ ﴿٦٣﴾

أي: لما تولى يوسف ﷺ خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير،
فزرع في أرض مصر جميعها في السنين الخصبة، زروعا هائلة،
و اتخذ لها المحلات الكبار، و جبا من الأطعمة شيئا كثيرا و حفظه،
و ضبطه ضبطا تاما،

○ فلما دخلت السنون المجدبة، و سرى الجذب،

حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب و بنوه،

فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر.

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)

أي: لم يعرفوه.

(وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِمَهَازِهِمْ)

أي: كال لهم كما كان يكيل لغيرهم،

و كان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير،
و كان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه، و هو بنيامين.

ف **(قَالَ)** لهم: **(اَتَّبِعُونِي يَا بَنِي لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ^٤)**

ثم رغبهم في الإتيان به

فقال: **(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)**

في الضيافة و الإكرام.

ثم رهبهم بعدم الإتيان به،

فقال: **(إِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)**

و ذلك لعلمه باضطرابهم إلى الإتيان إليه،

و أن ذلك يحملهم على الإتيان به.

ف— **(قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ آيَاتُ)**

دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعا به لا يصبر عنه،

و كان يتسلى به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم

(وَلِإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

لما أمرتنا به.

(وَقَالَ) يوسف

(لِفَتَيْنِهِ) الذين في خدمته:

(اجْعَلُوا بِضَاعَهُمْ)

أي: الثمن الذي اشتروا به من الميرة.

(فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا)

أي: بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم،

(إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

لأجل التخرج من أخذها على ما قيل،

و الظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلا وافيا،

ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها،

و لا يشعرون لما يأتي، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

*الميسر: اجعلوا ثمن ما أخذوه في أمتعتهم سرا؛

رجاء أن يعرفوه إذا رجعوا إلى أهلهم

و يقدروا إكرامنا لهم؛ ليرجعوا طمعا في عطائنا.

(فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ)

أي: إن لم ترسل معنا أخانا،

(فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلْ)

أي: ليكون ذلك سببا لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه،

فقالوا: (وَلِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

من أن يعرض له ما يكره.

*الميسر: فلما رجعوا إلى أبيهم قصّوا عليه ما كان من إكرام العزيز لهم،

و قالوا: إنه لن يعطينا مستقبلاً إلا إذا كان معنا أخونا الذي أخبرناه به،

فأرسله معنا نحضر الطعام وافيأً، و نتعهد لك بحفظه.

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۚ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا
 وَهُوَ أَزْهَمُ الرِّجَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضِيعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ
 قَالُوا يَا بَنَاءَ مَا نَحْنِي هَذِهِ ۖ بِضِيعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
 وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَاكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُتَوَّنُوا
 مُوْفِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
 وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۚ مَا أُغْنِي
 عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ
 مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهُ ۖ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ ۚ لِمَا عَلَّمْنَاهُ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰهِ
 أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

(قَالَ) لهم يعقوب عليه السلام

(هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ)

أي: تقدم منكم التزام، أكثر من هذا في حفظ يوسف،
 و مع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد،

فلا أثق بالتزامكم و حفظكم، و إنما أثق بالله تعالى .

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

أي: يعلم حالي، و أرجو أن يرحمني، فيحفظه و يرده عليّ،

و كأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم.

***هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ يَ، وَ سَيَرْحَمُ كِبْرِي وَ ضَعْفِي وَ وَجْدِي بَوْلَدِي،
وَ أَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيَّ، وَ يَجْمَعَ شَمْلِي بِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

ثم إنهم **(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ)**

هذا دليل على أنه قد كان معلوما عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد،
و أنه أراد أن يملكهم إياها.

ف— **(قَالُوا)**

لأبيهم — ترغيبا في إرسال أخيهام معهم — :

(يَتَأَبَأَنَا مَا نَبَغِي)

أي: أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفى لنا الكيل،

(هَذِهِ بِضَاعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا)

و رد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص و مكارم الأخلاق؟

(وَنَمِيرُ أَهْلَنَا)

أي: إذا ذهبنا بأخيها صار سببا لكيله لنا،

فمرنا أهلنا، و آتينا لهم، بما هم مضطرون إليه من القوت،
*الميسر: لنجلب طعاماً و فيراً لأهلنا

(وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلٌ بَعِيرٌ^ط)

بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير،

(ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ)

*الميسر: عليه

أي: سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، و المصلحة قد تبينت.

ف— (قَالَ) لهم يعقوب عليه السلام:

(لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ)

أي: عهداً ثقيلاً و تحلفون بالله

(لَتَأْتُنِي بِهِمْ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ^ط)

أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قبل لكم به، و لا تقدرون دفعه،

(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ)

على ما قال و أراد

(قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

أي: تكفينا شهادته علينا و حفظه و كفالاته

(وَقَالَ يَبْنَئِي)

ثم لما أرسله معهم وصاهم، إذا هم قدموا مصر،

أَنْ (لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ^ط)

و ذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم و بهاء منظرهم،

لكونهم أبناء رجل واحد، و هذا سبب

***كَانُوا ذَوِي جَمَالٍ وَ هَيئَةٍ حَسَنَةٍ،

***فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، تَسْتَنْزِلُ الْفَارِسَ عَنْ فَرَسِهِ. ()

(وَ) إِلَّا (وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ^ط)

فالمقدر لا بد أن يكون،

(إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ^ط)

أي: القضاء قضاؤه، و الأمر أمره، فما قضاؤه و حكمه لا بد أن يقع،

(عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ^ط)

أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب،

(وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، و يندفع كل مرهوب.

(وَلَمَّا) ذهبوا

الجامع الصغير وزيادته 7593 - قال النبي ﷺ الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَ تَدْخِلُ الْجَمَلَ الْقَدْرَ
(عد حل) عَنْ جَابِر (عد) عَنْ أَبِي ذَرٍّ.

و (دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ)

ذلك الفعل

(يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهُ)

*الميسر: و إني إذ أوصيكم بهذا لا أدفع عنكم شيئاً قضاءه الله عليكم
○ وهو موجب الشفقة و المحبة للأولاد،

فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، و قضاء لما في خاطره.

و ليس هذا قصورا في علمه، فإنه من الرسل الكرام و العلماء الربانيين،

و لهذا قال عنه: (وَلَئِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ)

أي: لصاحب علم عظيم

(لَمَّا عَلَّمْنَاهُ)

أي: لتعليمنا إياه، لا بحوله و قوته أدركه، بل بفضل الله و تعليمه،

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

عواقب الأمور و دقائق الأشياء

و كذلك أهل العلم منهم،

يخفى عليهم من العلم و أحكامه و لوازمه شيء كثير.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ)

أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف

(ءَاوَيْتَ إِلَيْهِ أَخَاهُ)

أي: شقيقه و هو « بنيامين » الذي أمرهم بالإتيان به، و ضمه إليه،
و اختصه من بين إخوته، و أخبره بحقيقة الحال،

و (قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ)

أي: لا تحزن

(بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع و يتحيل لبقائه عنده إلى أن
ينتهي الأمر.

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا
 الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾
 قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾
 قَالُوا نَالَهُ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾
 قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ
 جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ
 اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي
 دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مَّنْ نَّشَاءُ

وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿٧٦﴾

❖ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ

وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

قَالُوا يَتَّيِّبُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ

﴿٧٨﴾ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

(فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ)

أي: كال لكل واحد من إخوته، و من جملةهم أخوه هذا.

(جَعَلَ السَّقَايَةَ)

و هو: الإناء الذي يشرب به، و يكال فيه

(فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ)

أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين،

(أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ)

و لعل هذا المؤذن، لم يعلم بحقيقة الحال.

(قَالُوا)

أي: إخوة يوسف

(وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ)

لإبعاد التهمة،

فإن السارق ليس له همٌّ إلا البعد و الانطلاق عمن سرق منه، لتسلم له سرقة،

و هؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التي رموا بها عنهم،

فقالوا في هذه الحال:

(مَاذَا تَفْقَدُونَ)

و لم يقولوا: « ما الذي سرقنا » لجزمهم بأنهم براء من السرقة.

(قَالُوا نَفْقَدُ صُورَاعَ الْمَلِكِ)

***صَاعُهُ الَّذِي يَكِيلُ بِهِ

(وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ)

أي: أجرة له على وجدانه

(وَأَنَا بِهِ رَعِيمٌ)

أي: كفيل، و هذا يقوله المؤذن المتفقد.

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ)

بجميع أنواع المعاصي،

(وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)

فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض،

و إنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين و لا سارقين،

لأنهم عرفوا أنهم سبوا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم و ورعهم،

و أن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم،

و هذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا:

« تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق »

(قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ)

أي: جزاء هذا الفعل

(إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)

بأن كان معكم؟

(قَالُوا جَزَاءُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ)

أي: الموجود في رحله

(جَزَاءُ^ع)

بأن يمتلكه صاحب السرقة،

○ و كان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكا لصاحب المال المسروق،

و لهذا قالوا: (كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

(فَبَدَأَ) المفتش

(بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ)

و ذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد،

فلما لم يجد في أوعيتهم شيئا

(ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ^ع)

و لم يقل « وجدها، أو سرقها أخوه » مراعاة للحقيقة الواقعة.

فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته،

قال تعالى: (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ^ط)

أي: يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم

*** وَ هَذَا مِنَ الْكَيْدِ الْمَحْبُوبِ الْمُرَادِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَ يَرْضَاهُ،
لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ الْمَصْلَحَةِ الْمَطْلُوبَةِ.

(مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴿٧٥﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

لأنه ليس من دينه أن يملك السارق،

و إنما له عندهم، جزاء آخر،

فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده،
و لكنه جعل الحكم منهم، ليتم له ما أراد.

قال تعالى: (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ)

بالعلم النافع، و معرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف،
*** كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الْمُجَادَلَةِ: 11]

(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

فكل عالم، فوَّقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب
و الشهادة.

فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا (قَالُوا إِنَّ يَسْرِقَ)

هذا الأخ، فليس هذا غريبا منه.

(فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ)

يعنون: يوسف ^{عليه السلام}

و مقصودهم تبرئة أنفسهم

و أن هذا و أخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة،

و هما ليسا شقيقين لنا.

و في هذا من الغض عليهما ما فيه،

(فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ.)

و لهذا: أسرها يوسف في نفسه

(وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ.)

أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون،

بل كظم الغيظ، و أسرَّ الأمر في نفسه.

و (قَالَ)

في نفسه

(أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا.)

حيث ذممتونا بما أنتم على أشر منه،

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ.)

منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها،

ثم سلکوا معه مسلك التملق، لعله یسمح لهم بأخیهم.

ف (قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا)

أي: و إنه لا یصبر عنه، و سیشق علیه فراقه،

(فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ^ط إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

فأحسن إلینا و إلى أبینا بذلك.

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوا ^(٧٩)
 فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ
 أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ
 حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ^(٨٠) أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ
 فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ
 حَافِظِينَ ^(٨١) وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا
 وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ^(٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَهَاجَرُوا جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ
 أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ^(٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ
 وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْغَضَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ^(٨٤)
 قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ
 الْهَالِكِينَ ^(٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ
 وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ^(٨٦)

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوا ^(٧٩)

ف—(قَالَ) يوسف

(مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ)

أي: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنوب من وجدنا متاعنا عنده،
و لم يقل « من سرق » كل هذا تحرز من الكذب،

(إِنَّا إِذَا) أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله

(نَظْلِمُوكَ) حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَالَصُوا بِحَيٍّ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ
أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَاقِفًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ
حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَخُفَّكُمْ اللَّهُ لِيُوهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ
فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ
حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا إِنَّا
لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْ لَمْ تُصَبِّرُوا بِيَمِينِ اللَّهِ أَن
يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

(فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ)

أي: فلما استيأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم

(خَالَصُوا بِحَيٍّ)

أي: اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، و جعلوا يتناجون فيما بينهم،

ف—(قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ)

في حفظه، و أنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم

(وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ط)

فاجتمع عليكم الأُمـران:—

1-تفـريطكم في يوسف السابق،

2-و عـدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي.

(فَلَنْ أُنَبِّحَ الْأَرْضَ)

أي: سأقيم في هذه الأرض و لا أزال بها

(حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي)

*الميسر:حتى يأذن لي أبي في مفارقتها،

(أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ لِي ط)

أو يقضي لي ربي بالخروج منها، و أتمكن من أخذ أخِي،

○ أي: يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي

(وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

*الميسر:و الله خيرُ مَنْ حَكَمَ، و أعدل من فَصَلَ بين الناس.

○ ثم وصَّاهم بما يقولون لأبيهم،

فقال: (**ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّ ابْنَك سَرَقَ**)

أي: و أخذ بسرقة، و لم يحصل لنا أن نأتيك به،
مع ما بذلنا من الجهد في ذلك.

(**وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا**)

و الحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، و إنما شهدنا بما علمنا،
لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله،

(**وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**)

أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا و بذلنا المجهود في ذهابه معنا،
و لما أعطيناك عهدنا و موثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ.

(**وَسَتَلِي**)

إن شككت في قولنا

(**الْقَرْيَةِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا**)

فقد اطلعوا على ما أخبرناك به

(**وإِنَّا لَصَادِقُونَ**)

لم نكذب و لم نغير و لم نبدل، بل هذا الواقع.

فلما رجعوا إلى أبيهم و أخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه و تضاعف كمدّه،
و اتهمهم أيضا في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى،

و (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا^ط)

*الميسر: قال لهم: بل زينت لكم أنفسكم الأمانة بالسوء مكيدة
دبرتموها كما فعلتم من قبل مع يوسف،

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ^ط)

أي: ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي:-

لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق،

ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكربة انتهت

فقال: (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا^ع)

أي: يوسف و « بنيامين » وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.

(إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ)

الذي يعلم حالي، و احتياجي إلى تفريجه و منته، و اضطراري إلى إحسانه،

(الْحَكِيمُ)

الذي جعل لكل شيء قدرا، و لكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته
الربانية.

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يَوْسُفَ وَأَيُّضًا عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ

﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ

الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ

وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ)

أي: و تولى يعقوب عليه السلام عن أولاده بعد ما أخبروه هذا الخبر،
*الميسر: و أعرض يعقوب عنهم

(وَقَالَ يَتَأَسَفُ عَلَى يَوْسُفَ)

و اشتد به الأسف و الأسى،

أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم و الشوق المقيم،
و ذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى.

(وَأَبْيَضَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ)

الذي في قلبه، و الكمد الذي أوجب له كثرة البكاء،
حيث ابيضت عيناه من ذلك.

(فَهُوَ كَظِيمٌ)

أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد،
*الميسر: و لكنه شديد الكتمان له.
***لا يشكو أمره الي مخلوق

(قَالُوا) فقال له أولاده متعجبين من حاله: (تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذْكُرُ يَوْسُفَ)

أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك.

(حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا)

أي: فانيا لا حراك فيك و لا قدرة على الكلام.

(أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ)

أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبدا.

(قَالَ) يعقوب عليه السلام

(إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي)

أي: ما أبث من الكلام

***همي

(وَحُزْنِي)

الذي في قلبي

(إِلَى اللَّهِ)

وحده، لا إليكم و لا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم

(وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

○ من أنه سيردهم علي و يقر عيني بالاجتماع بهم.

*الميسر: و أعلم من رحمة الله و فرجه ما لا تعلمونه.

يَبْنِيْ اَذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُوسُفَ وَآخِيْهِ وَلَا تَأْتِسُوْا مِنْ رَّوْحِ اَللّٰهِ اِنَّهٗ لَا
يَأْتِسُ مِنْ رَّوْحِ اَللّٰهِ اِلَّا اَلْقَوْمُ اَلْكَافِرُوْنَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوْا عَلَيْهِ قَالُوْا يَتَّيْنٰهَا الْعَزِيْزُ
مَسْنَا وَاَهْلُنَا الضُّرُّ وَجِثْنَا بِضَعَعٍ مُّرْجَلَتُوْا فَاَوْفٍ لَّنَا اَلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا اِنَّ اَللّٰهَ
يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِيْنَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَآخِيْهِ اِذْ اَنْتُمْ
جَاهِلُوْنَ ﴿٨٩﴾ قَالُوْا اِنَّكَ لَآَنْتَ يُوْسُفُ قَالَ اَنَا يُوْسُفُ وَهٰذَا اَخِيْ قَدْ
مَنَّ اَللّٰهُ عَلَيْنَا اِنَّهٗ مِنْ يَتَّقٍ وَيَصْبِرْ فَاِنَّ اَللّٰهَ لَا يُضِيعُ اَجْرَ الْمُحْسِنِيْنَ
﴿٩٠﴾ قَالُوْا تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اَللّٰهُ عَلَيْنَا وَاِنْ كُنَّا لَخٰطِئِيْنَ ﴿٩١﴾
قَالَ لَا تَتْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اَللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ اَرْحَمُ الرَّحِيْمِيْنَ ﴿٩٢﴾
اَذْهَبُوْا بِقِمِيصِيْ هٰذَا فَاَلْقُوْهُ عَلَى وَجْهِ اَبِيْ يَاتِ بِصِيْرًا وَاَتُوْنِيْ بِاَهْلِكُمْ
اَجْمَعِيْنَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيْرُ قَالَتْ اَبُوْهُمُ اِنِّيْ لَآٰجِدُ رِيْحَ يُوْسُفَ
لَوْلَا اَنْ تُفَنِّدُوْنِ ﴿٩٤﴾ قَالُوْا تَاللّٰهِ اِنَّكَ لَفِي ضَلٰلٍكَ اَلْقَدِيْمِ ﴿٩٥﴾

يَبْنِيْ اَذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُوسُفَ وَآخِيْهِ وَلَا تَأْتِسُوْا مِنْ رَّوْحِ اَللّٰهِ اِنَّهٗ لَا
يَأْتِسُ مِنْ رَّوْحِ اَللّٰهِ اِلَّا اَلْقَوْمُ اَلْكَافِرُوْنَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوْا عَلَيْهِ قَالُوْا يَتَّيْنٰهَا الْعَزِيْزُ
مَسْنَا وَاَهْلُنَا الضُّرُّ وَجِثْنَا بِضَعَعٍ مُّرْجَلَتُوْا فَاَوْفٍ لَّنَا اَلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا

إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

أي: قال يعقوب عليه السلام لبيته:

(يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ)

أي: احرصوا و اجتهدوا على التفتيش عنهما
**و التَّحَسُّسُ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ، وَ التَّجَسُّسُ يُسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ.

(وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)

*الميسر: و لا تقطعوا رجاءكم من رحمة الله،
فإن الرجاء: - يوجب للعبد السعي و الاجتهاد فيما رجاه،
و الإياس: - يوجب له الشاغل و التباطؤ،

و أولى ما رجا العباد، فضل الله و إحسانه و رحمته و روحه،

(إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

*الميسر: إنه لا يقطع الرجاء من رحمة الله إلا الجاحدون لقدرته،
الكافرون به.

○ فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، و رحمته بعيدة منهم،

فلا تشبهوا بالكافرين.

و دل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله و روحه،

فذهبوا (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ)

أي: على يوسف

(قَالُوا) متضرعين إليه:

(يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزَجَّجَةٍ فَأَوَفَّ لَنَا الْكِيلَ
وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا^ط)

أي: قد اضطررنا نحن و أهلنا

(وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزَجَّجَةٍ)

أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلتها، و عدم وقوعها الموقع،
***وَمَعَنَا ثَمَنُ الطَّعَامِ الَّذِي قَمَّارُهُ، وَهُوَ ثَمَنٌ قَلِيلٌ.

(فَأَوَفَّ لَنَا الْكِيلَ)

أي: مع عدم وفاء العرض، و تصدق علينا بالزيادة عن الواجب.
***أَعْطَيْنَا بِهَذَا الثَّمَنِ الْقَلِيلِ مَا كُنْتَ تُعْطِينَا قَبْلَ ذَلِكَ.

(وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا^ط)

***قِيلَ: بَرَدٌ أَخِينَا إِلَيْنَا.

***قِيلَ: تَصَدَّقَ عَلَيْنَا بِقَبْضِ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ الْمُرْجَاةِ، وَتَجَوَّزَ فِيهَا.

(إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)

بثواب الدنيا و الآخرة.

فلما انتهى الأمر، و بلغ أشده،

رَقَّ لَهُمْ يَوْسُفُ رَقَّةً شَدِيدَةً، وَ عَرَفَهُمْ بِنَفْسِهِ، وَ عَاتَبَهُمْ.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَنْتَقِ يُّوسُفَ قَالِ أَنَا يُّوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصِيرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَازَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ)

أما يوسف فظاهر فعلهم فيه،
و أما أخوه، فلعله و الله أعلم قولهم:
(إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ)
أو أن الحادث الذي فرَّق بينه و بين أبيه، هم السبب فيه،
و الأصل الموجب له.

(إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

و هذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين،
مع أنه لا ينبغي و لا يليق منهم.

*** إِمَّا حَمَلَكُمْ عَلَى هَذَا [الْجَهْلُ] بِمِقْدَارِ هَذَا الَّذِي ارْتَكَبْتُمُوهُ،
كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ،
وَ قَرَأَ: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ إِلَى قَوْلِهِ:

{إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: 119] .

*** وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ،
بِإِذْنِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ،

كَمَا أَنَّهُ إِنَّمَا أَخْفَى مِنْهُمْ نَفْسَهُ فِي الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ،

وَلَكِنْ لَمَّا ضَاقَ الْحَالُ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ، فَرَجَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ الضِّيقِ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا*} إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا { [الشرح: 5، 6]

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا: {أَوَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ} ؟

فَعَرَفُوا أَنَّ الَّذِي خَاطَبَهُمْ هُوَ يُوسُفُ، فَقَالُوا:

(قَالُوا أَوَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ)

*** إِنَّهُمْ تَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَنَتَيْنِ وَأَكْثَرٍ،
وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَعْرِفُهُمْ وَيَكُنُّ نَفْسَهُ،
فَلِهَذَا قَالُوا عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِفْهَامِ:

{أَوَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي}

(قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا)

*** بِجَمْعِهِ بَيْنَنَا بَعْدَ التَّفْرِقَةِ وَبَعْدَ الْمُدَّةِ،

بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَالتَّمَكُّنِ فِي الدُّنْيَا،

وَذَلِكَ بِسَبَبِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى،

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ)

أي: يتقي فعل ما حرم الله، و يصبر على الآلام و المصائب،
و على الأوامر بامثالها

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

فإن هذا من الإحسان، و الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا)

أي: فضلك علينا —:—

1-مكارم الأخلاق و محاسن الشيم،

و أسأنا إليك غاية الإساءة،

و حرصنا على إيصال الأذى إليك،

و التباعد لك عن أبيك،

فآثرك الله تعالى و ممكنك مما تريد

2-الْفَضْلِ وَ الْأَثَرَةِ عَلَيْهِمْ فِي الْخُلُقِ وَ الْخُلُقِ،

3-وَ السَّعَةِ وَ الْمُلْكِ، وَ التَّصَرُّفِ

4-وَ الثُّبُوتِ أَيْضًا -عَلَى قَوْلِ مَنْ لَمْ يَجْعَلْهُمْ أَنْبِيَاءَ -

وَ أَقْرُوا لَهُ بِأَنَّهُمْ أَسَاءُوا إِلَيْهِ وَ أَخْطَأُوا فِي حَقِّهِ.

(وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيطِينَ)

و هذا غاية الاعتراف منهم بالجُرم الحاصل منهم على يوسف.

ف (قَالَ) لهم يوسف عليه السلام كرما و جودا:

(لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ ^طالْيَوْمَ)

أي: لا أثرب عليكم و لا ألومكم

(يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

فسمح لهم سماحا تاما، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق،
و دعا لهم بالمغفرة و الرحمة،

و هذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق و خيار المصطفين.

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ
لَوْلَا أَن تَفِنْدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

أي: قال يوسف ^{عليه السلام} لإخوته:

(أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا)

لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف،
الذي أودع قلب أبيه من الحزن و الشوق ما الله به عليم -

أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، و تتراجع إليه نفسه، و يرجع إليه بصره،
و لله في ذلك حكم و أسرار، لا يطلع عليها العباد،

و قد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر .

(وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)

أي: أولادكم و عشيرتكم و توابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء،
و يزول عنكم نكد المعيشة، و ضنك الرزق.

(وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ)

***خرجت من مصر

عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، شمَّ يعقوب ريح القميص،

ف—(قَالَ أَبُوهُمْ)

***يعقوب ^{عليه السلام} لمن بقي عنده من بنيه

(إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ^ط لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

***تسفهون

أي: تسخرون مني، و تزعمون أن هذا الكلام، صدر مني من غير شعور،
لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول.

فوقع ما ظنه بهم ف—(قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)

***لفي خطئك القديم

○أي: لا تزال تائها في بحر الحب لا تدري ما تقول.

***قَالُوا لِيَا أَدِيبَهُمْ كَلِمَةً غَلِيظَةً، لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَقُولُوهَا لِيَا أَدِيبَهُمْ،
و لَا لِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي
أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْتَ وَنُوحٌ وَإِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ
﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا
دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ
﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتُ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ
قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ
مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ✽ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَتَوَقَّى مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي
بِالصَّبْرِ لِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي
أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْتَ وَنُوحٌ وَإِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ
﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ)

*الميسر: فلما أن جاء من يبشّر يعقوب بأن يوسف حي
○ بقرب الاجتماع بيوسف و إخوته و أبيهم،

(الْقَهْ) أي: القميص

(عَلَى وَجْهِهِ فَأَزْتَدَّ بَصِيرًا)

أي: رجع على حاله الأولى بصيرا، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن،
فقال لمن حضره من أولاده و أهله الذين كانوا يفندون رأيه، و يتعجبون منه
منتصرا عليهم، متبجحا بنعمة الله عليه:

(قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

حيث كنت مترجيا للقاء يوسف، مترقبا لزوال الهم و الغم و الحزن.
فأقروا بذنبهم و نجعوا بذلك

و (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)

حيث فعلنا معك ما فعلنا.

ف— (قَالَ) مجيبا لطلبتهم، و مسرعا لإجابتهم:

(سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

أي: و رجائي به أن يغفر لكم و يرحمكم، و يتغمدكم برحمته،
و قد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل،

ليكون أتم للاستغفار، و أقرب للإجابة.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ
ءَامِنِينَ ﴿١١﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتِ هَذَا تَأْوِيلُ
رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ
مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾

أي: (فَلَمَّا)

تجهز يعقوب و أولاده و أهلهم أجمعون،
و ارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر و سكنائها،
فلما وصلوا إليه،

و(دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ)

أي: ضمهما إليه، و اختصهما بقربه،
و أبدى لهما من البر و الإكرام و التبجيل و الإعظام شيئاً عظيماً،
(وَقَالَ) لجميع أهله:

(ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ)

من جميع المكاره و المخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة،

و زال عنهم النصب و نكد المعيشة، و حصل السرور و البهجة.

(وَرَفَعَ أَبُوبَيْهٍ عَلَى الْعَرْشِ)

أي: على سرير الملك، و مجلس العزيز،

(وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا^{صلط})

أي: أبوه، و أمه و إخوته، سجودا على وجه التعظيم و التبجيل و الإكرام،

وَقَدْ كَانَ هَذَا سَائِغًا فِي شَرَائِعِهِمْ إِذَا سَلَّمُوا عَلَى الْكَبِيرِ يَسْجُدُونَ لَهُ،

وَلَمْ يَزَلْ هَذَا جَائِزًا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى شَرِيعَةِ عِيسَى عليه السلام

فَحَرَّمَ هَذَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ،

و جُعِلَ السُّجُودُ مُخْتَصًّا بِجَنَابِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى.

سنن الترمذي

1159 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»

وَالْغَرَضُ أَنَّ هَذَا كَانَ جَائِزًا فِي شَرِيعَتِهِمْ؛ وَلِهَذَا خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا،

(وَقَالَ) لما رأى هذه الحال،

و رأى سجودهم له: (يَتَأَبَّتْ هَذَا تَأْوِيلَ رُءُوسِي مِنْ قَبْلِ)

حين رأى أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر له ساجدين،

فهذا وقوعها الذي آلت إليه و وصلت

وَأَيُّ: هَذَا مَا آلَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ، فَإِنَّ التَّأْوِيلَ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} [الأنعام: 53]

أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْتِيهِمْ مَا وَعَدُوا مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ.

(قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا)

***صَحِيحَةٌ صِدْقًا، يَذْكُرُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ
فلم يجعلها أضغاث أحلام.

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ)

إحسانا جسيما

(إِذَا أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ)

*** من البادية

○ وهذا من لطفه و حسن خطابه ﷺ،

حيث ذكر حاله في السجن،

و لم يذكر حاله في الحب، لتمام عفوه عن إخوته،

و أنه لا يذكر ذلك الذنب،

و أن إتيانكم من البادية من إحسان الله إليّ.

فلم يقل: جاء بكم من الجوع و النصب،

و لا قال: « أحسن بكم »

بل قال (وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ)

جعل الإحسان عائدا إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده،

و يهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب.

(مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي^ع)

فلم يقل « نزع الشيطان إخوتي »

بل كأن الذنب و الجهل، صدر من الطرفين،

فالحمد لله الذي أخزى الشيطان و دحره، و جمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

(إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ^ع)

يوصل بره و إحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر،

و يوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها،

(إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ)

الذي يعلم ظواهر الأمور و بواطنها، و سرائر العباد و ضمائرهم،

(الْحَكِيمُ)

في وضعه الأشياء مواضعها، و سوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

❖ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ

وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض و الملك،

و أقر عينه بأبويه و إخوته،

و بعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه،

قال مقرا بنعمة الله شاكرا لها داعيا بالثبات على الإسلام:

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ)

و ذلك أنه كان على خزائن الأرض و تدبيرها و وزيرا كبيرا للملك

(وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ^ط)

أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة و تأويل الرؤيا و غير ذلك من العلم

(فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ^ط فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا)

أي: أدم عليّ الإسلام و ثبتني عليه حتى توفاني عليه،

و لم يكن هذا دعاء باستعجال الموت،

(وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ)

من الأنبياء الأبرار و الأصفياء الأخيار.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ

إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾

لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ

قال الله له: (ذَلِكَ)

الإنباء الذي أخبرناك به

(مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ^ط)

***للعبرة و الاتعاظ لمن خالفك

الذي لولا إيحائنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل،

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ)

فإنك لم تكن حاضرا لديهم

(إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ)

أي: إخوة يوسف.

***علي إلقائه في الجب

(وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه،

في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى،

و لا يمكن أحدا أن يصل إلى علمها، إلا بتعليم الله له إياها.

كما قال تعالى لما قص قصة موسى و ما جرى له،

ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه

وَ قَالَ تَعَالَى: **{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ**

الشَّاهِدِينَ} [الْقَصص: 44]

○ فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله حقا.

***وَ لَكِنَّا أَعْلَمْنَاكَ بِهِ وَحْيًا إِلَيْكَ، وَ إِنزَالًا عَلَيْكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ

وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آلِ عِمْرَانَ: 44]

إِلَى أَنْ قَالَ: {وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} [الْقَصَص: 46]

وَقَالَ {وَمَا كُنْتُ نَارِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} [الْقَصَص: 45]

وَقَالَ {مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ} إِنَّ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ { [ص: 69، 70]

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ)

على إيمانهم

(بِمُؤْمِنِينَ)

فإن مداركهم و مقاصدهم قد أصبحت فاسدة،
فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم و لو عدت الموانع،
بأن كانوا يعلمونهم و يدعونهم إلى ما فيه الخير لهم،
و دفع الشر عنهم، من غير أجر و لا عوض،
و لو أقاموا لهم من الشواهد و الآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا.

***وَقَالَ {وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الْأَنْعَام: 116] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

و لهذا قال:—

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ

عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا

إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِ ^ط وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي

الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ

لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ

كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ^ط مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ

وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ

كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْقَوْمِ ^ط يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

وَمَا يُؤْمِنُ اَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ اِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

اَفَاْمِنُوْا اَنْ تٰتِيَهُمْ غٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّٰهِ

اَوْ تٰتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ اَجْرٍ اِنَّ هُوَ اِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ)

يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، و ما يضرهم ليتركوه.

(وَكَأَيِّن)

أي: و كم

(مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا)

دالة لهم على توحيد الله

(وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

و مع هذا ان وجد منهم بعض الإيمان

(وَمَا) فلا

(يُؤْمِنُ اَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ اِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ)

فهم و إن أقروا بربوبية الله تعالى،

و أنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور،

فإنهم يشركون في ألوهية الله و توحيده،
فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب،
و يفجأهم العقاب وهم آمنون،

*** قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:-

مِنْ إِيْمَانِهِمْ، إِذَا قِيلَ لَهُمْ:
مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ؟
وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟
وَمَنْ خَلَقَ الْجِبَالَ؟
قَالُوا: "اللَّهُ"، وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ.

*** صحيح مسلم

(1185) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،
قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ،
قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ»

فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَ مَا مَلَكَ،
يَقُولُونَ هَذَا وَ هُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ ()

*** وَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لُقْمَانَ: 13]
وَ هَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَعْبُدُ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ،
كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ. عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ
قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟

(قد قد) كفاكم هذا الكلام فاقصروا عليه ولا تزيدوا

قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ".

***وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ:

{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}

قَالَ: ذَلِكَ الْمُنَافِقُ يَعْمَلُ إِذَا عَمِلَ رِبَاءَ النَّاسِ، وَهُوَ مُشْرِكٌ بِعَمَلِهِ ذَاكَ،

يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى

الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النِّسَاء: 142]

***صحيح مسلم

(2985) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ،

مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ

***مسند أحمد ط الرسالة

23630 عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

قَالَ: "إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ

" قَالُوا: وَ مَا الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: " الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:-

إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ:

أَذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا

فَانظَرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً

و لهذا قال: (**أَفْأَمِنُوا**)

أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله

(**أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَنَشِيَّةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ**)

أي: عذاب يغشاهم و يعمهم و يستأصلهم،

(أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً)

أي: فجأة

(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

أي: فإنهم قد استوجبوا لذلك،

فليتوبوا إلى الله، و يتركوا ما يكون سببا في عقابهم.

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: { أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ }

[النحل: 45- 47]

وَ قَالَ تَعَالَى:

{ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [الأعراف: 97- 99] .

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:

(قُلْ)

للناس (هَذِهِ سَبِيلِي)

أي: طريقي التي أدعو إليها،

وهي السبيل الموصلة إلى الله و إلى دار كرامته،

المتضمنة للعلم بالحق والعمل به و إيثاره،

و إخلاص الدين لله وحده لا شريك له،

(أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ)

أي: أحثُّ الخلق و العباد إلى الوصول إلى ربهم،

و أرغبهم في ذلك و أرهبهم مما يبعدهم عنه.

و مع هذا فأنا (عَلَى بَصِيرَةٍ)

من ديني، أي: على علم و يقين من غير شك و لا امتراء و لا مرية

(أَنَا).

(وَ) كذلك

(وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره.

(وَسُبِّحَنَ اللَّهُ)

عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله.
*** وَ أُنْزِلَهُ اللَّهُ وَ أَجِلُّهُ وَ أَعْظَمُهُ وَ أَقْدَسُهُ، عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ أَوْ نَظِيرٌ،
أَوْ عَدِيلٌ أَوْ نَدِيدٌ، أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ أَوْ صَاحِبَةٌ، أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشِيرٌ،
تَبَارَكَ وَ تَعَالَى وَ تَقَدَّسَ وَ تَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيرًا،
{ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ
وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [الْإِسْرَاءِ: 44]

(وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصا له الدين.

ثم قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا)

أي: لم نرسل ملائكة و لا غيرهم من أصناف الخلق،

فلأي شيء يستغرب قومك رسالتك،

و يزعمون أنه ليس لك عليهم فضل،

فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة

*** يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرْسَلَ رَسُولَهُ مِنَ الرِّجَالِ لَا مِنَ النِّسَاءِ.

وَ هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:-

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُوحِ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ بَنِي آدَمَ وَحْيَ تَشْرِيعٍ.

*** أَنَّهُ لَيْسَ فِي النِّسَاءِ نَبِيَّةٌ

وَإِنَّمَا فِيهِنَّ صِدِّيقَاتٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَشْرَفِهِنَّ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ
حَيْثُ قَالَ: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ

صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ} [الْمَائِدَةِ: 75]

فَوَصَّهَا فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهَا بِالصَّدِّيقَةِ،
فَلَوْ كَانَتْ نَبِيَّةً لَذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَقَامِ التَّشْرِيفِ وَ الْإِعْظَامِ،
فَهِىَ صِدِّيقَةٌ بِنَصِّ الْقُرْآنِ.

(نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)

أي: لا من البادية، بل من أهل القرى الذين هم أكمل عقولا و أصح آراء،
و ليتبين أمرهم و يتضح شأنهم.

*** لَا أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي، الَّذِينَ هُمْ أَجْفَى النَّاسِ طِبَاعًا وَ أَخْلَاقًا.
وَ هَذَا هُوَ الْمَعْهُودُ الْمَعْرُوفُ أَنَّ أَهْلَ الْمُدُنِ أَرْقَى طِبَاعًا،
وَ أَلْطَفُ مِنْ أَهْلِ سَوَادِهِمْ،

وَ أَهْلُ الرِّيفِ وَ السَّوَادِ أَقْرَبُ حَالًا مِنَ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ فِي الْبَوَادِي؛
وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ

مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ} [التَّوْبَةِ: 97]

***مسند أحمد ط الرسالة

7363 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيِّ، قَالَ: فَأَهْدَى لَهُ نَاقَةً، يَعْنِي قَوْلَهُ،
قَالَ: " لَا أَتَهُبُّ إِلَّا مِنْ قَرْشِيٍّ، أَوْ دَوْسِيٍّ، أَوْ ثَقَفِيٍّ "

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

إذا لم يصدقوا لقولك،

(فَنَظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

كيف أهلكهم الله بتكذيبهم،
فاحذروا أن تقيموا على ما أقاموا عليه، فيصيبكم ما أصابهم،

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ)

أي: الجنة و ما فيها من النعيم المقيم،

(خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا)

الله في امثال أوامره، و اجتناب نواهيه،
فإن نعيم الدنيا منغص منكد، منقطع، و نعيم الآخرة تام كامل، لا يفنى أبداً،
بل هو على الدوام في تزايد و تواصل،
(عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ)

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

أي: أفلا تكون لكم عقول تؤثر الذي هو خير على الأدنى.
*** وَ كَمَا أَنْجَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا،
كَذَلِكَ كَتَبْنَا لَهُمُ النِّجَاةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَيْضًا،
وَ هِيَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بِكَثِيرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ
الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر: 50، 51] .

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

(حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ)

*الميسر: إذا يئس الرسل من قومهم

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا)

*الميسر: و أيقنوا أن قومهم قد كذبوهم و لا أمل في إيمانهم،

يخبر تعالى: أنه يرسل الرسل الكرام،

فيكذبهم القوم المجرمون اللئام،

و أن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق،

و لا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل.

○ حتى إن الرسل - على كمال يقينهم، و شدة تصديقهم بوعد الله و وعيده

-ربما:-

أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس، و نوع من ضعف العلم و التصديق،

***كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ

اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214]

فإذا بلغ الأمر هذه الحال

(جَاءَهُمْ نَصْرُنَا)

*الميسر: عند شدة الكرب

(فَنُجِيَ مِنْ نَشَأٍ^ط)

و هم الرسل و أتباعهم،

(وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ)

أي: و لا يرد عذابنا، عن مجرميهم، و تجرأ على الله

(فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ)

***صحيح البخاري

4695 عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ لَهُ وَ هُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

{حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ} [يوسف: 110]

قَالَ: قُلْتُ: أَكْذِبُوا أَمْ كَذَّبُوا؟

قَالَتْ عَائِشَةُ: «كَذَّبُوا»

قُلْتُ: فَقَدْ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ؟

قَالَتْ: «أَجَلَ لِعَمْرِي لَقَدْ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ»

فَقُلْتُ لَهَا: وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا،

قَالَتْ: «مَعَاذَ اللَّهِ لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا»

قُلْتُ: فَمَا هَذِهِ الْآيَةُ؟

قَالَتْ: «هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ،

وَ صَدَّقُوهُمْ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ،

وَ اسْتَخَرَهُمْ النَّصْرَ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ،

وَظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ»

***صحيح البخاري

4696 - عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ:-

أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ، فَقُلْتُ لَعَلَّهَا كُذِّبُوا مُحَقَّقَةً،

قَالَتْ: «مَعَاذَ اللَّهِ» نَحْوَهُ

***صحيح البخاري

4524 - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

{ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا } [يوسف: 110]

خَفِيفَةً، ذَهَبَ بِهَا هُنَاكَ، وَ تَلَا:

{ حَتَّى يَقُولَ الرُّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ }

[البقرة: 214]. فَلَقِيتُ عُرْوَةَ بِنَ الزُّبَيْرِ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ،

4525 - عَنْ عَائِشَةَ:

«مَعَاذَ اللَّهِ وَ اللَّهِ مَا وَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا عَلِمَ أَنَّهُ كَائِنٌ قَبْلَ أَنْ

يَمُوتَ،

وَ لَكِنْ لَمْ يَزَلِ الْبَلَاءُ بِالرُّسُلِ،

حَتَّى خَافُوا أَنْ يَكُونَ مَنْ مَعَهُمْ يُكْذِّبُونَهُمْ»

فَكَانَتْ تَقْرُؤُهَا: (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا) مُثَقَّلَةً ()

***تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر

20026 عن أبي الضحى، عن مسروق

(خفيفة) أي خفيفة الذال غير مشددة.

[ذهب بها هناك) أي فهم من هذه الآية ما فهم من تلك]

أن رجلاً سأل عبد الله بن مسعود:

(حق إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا)

قال: هو الذي تكره = مخففة.

(لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ)

أي: قصص الأنبياء و الرسل مع قومهم،

(عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ)

أي: يعتبرون بها، أهل الخير و أهل الشر،

و أن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، و يعتبرون بها أيضاً،

ما لله من صفات الكمال و الحكمة العظيمة،

و أنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

و قوله: (مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى)

أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من

الأحاديث المفتراة المختلفة،

*الميسر: ما كان هذا القرآن حديثاً مكذوباً مختلفاً،

(وَلَكِنْ) كان

(تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)

من الكتب السابقة، يوافقها و يشهد لها بالصحة،

***مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ،

وَهُوَ يُصَدِّقُ مَا فِيهَا مِنَ الصَّحِيحِ،
وَيَنْفِي مَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَبْدِيلٍ وَتَغْيِيرٍ،
وَيَحْكُمُ عَلَيْهَا بِالنَّسخِ أَوْ التَّقْرِيرِ،

(وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ)

يحتاج إليه العباد من أصول الدين و فروعه، و من الأدلة و البراهين.

*** مِنْ تَحْلِيلٍ وَ تَحْرِيمٍ، وَ مَحْبُوبٍ وَ مَكْرُوهٍ،
وَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرِ بِالطَّاعَاتِ وَ الْوَاجِبَاتِ وَ الْمُسْتَحَبَّاتِ،
وَ النَّهْيِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ وَ مَا شَاكَلَهَا مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ،
وَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْأُمُورِ عَلَى الْجَلِيَّةِ،
وَ عَنِ الْغُيُوبِ الْمُسْتَقْبَلَةِ الْمُجْمَلَةِ وَ التَّفْصِيلِيَّةِ،
وَ الْإِخْبَارِ عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى بِالْأَسْمَاءِ وَ الصِّفَاتِ،
وَ تَنْزِيهِهِ عَنِ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَلِهَذَا كَانَ:

(وَهُدًى)

فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق و إشاره -
يحصل لهم الهدى،

(وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

و بما يحصل لهم من الثواب العاجل و الآجل تحصل لهم الرحمة.
*** تَهْتَدِي بِهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ،
وَ مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى السَّدَادِ،
وَ يَبْتَغُونَ بِهِ الرَّحْمَةَ مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ، فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْمَعَادِ.
فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ،

يَوْمَ يَفُورُ بِالرَّبِّحِ الْمُبِیَّضَةِ وَجُوهُهُمُ النَّاصِرَةُ،
وَ يَرْجِعُ الْمَسْوَدَّةَ وَجُوهُهُمُ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ.
فصل:-

في ذكر شيء من العبر و الفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة
التي قال الله في أولها

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)

وقال (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ)

و قال في آخرها (**لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**)

غير ما تقدم في مطاوبها من الفوائد. فمن ذلك:-

1- أن هذه القصة من أحسن القصص و أوضحها و أبينها،

لما فيها من أنواع التنقلات،

من حال إلى حال،

و من محنة إلى محنة،

و من محنة إلى منحة و منة،

و من ذل إلى عز،

و من رقٍّ إلى ملك،

و من فرقة و شتات إلى اجتماع و ائتلاف،

و من حزن إلى سرور،

و من رخاء إلى جذب،

و من جذب إلى رخاء،

و من ضيق إلى سعة،

و من إنكار إلى إقرار، فتبارك من قصها فأحسنها، و وضحها و بيّنها.

2- أن فيها أصلا لتعبير الرؤيا،

و أن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده،

و إن أغلب ما تبنى عليه المناسبة و المشابهة في الاسم و الصفة،

فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس و القمر، و أحد عشر كوكبا له ساجدين،

وجه المناسبة فيها:

أن هذه الأنوار هي زينة السماء و جمالها، و بها منافعها،

فكذلك الأنبياء و العلماء، زينة للأرض و جمال،

و بهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار،

و لأن الأصل أبوه و أمه،

و إخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورا و جرما،

لما هو فرع عنه.

فلذلك كانت الشمس أمه، و القمر أباه، و الكواكب إخوته.

و من المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه،

و القمر و الكواكب مذكرات، فكانت لأبيه و إخوته،

و من المناسبة أن الساجد معظم محترم للمسجود له،

و المسجود له معظم محترم،

فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظما محترما عند أبويه و إخوته.

و من لازم ذلك أن يكون مجتبي مفضلا في العلم و الفضائل الموجبة لذلك،
و لذلك قال له أبوه:

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)

○ و من المناسبة في رؤيا الفتية——:

أنه أول رؤيا، الذي رأى أنه يعصر خمرا،

أن الذي يعصر في العادة، يكون خادما لغيره، و العصر يقصد لغيره،

فلذلك أوله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، و ذلك متضمن لخروجه من السجن.

○ و أول الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه

و لحمه، و ما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمله، و أنه سيرز للطيور،

بمحل تتمكن من الأكل من رأسه،

فرأى من حاله أنه سيقتل و يصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه،

و ذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

○ و أول رؤيا الملك للبقرات و السنبلات، بالسنيين المخصبة، و السنيين

المجدبة،

و وجه المناسبة أن الملك، به ترتبط أحوال الرعية و مصالحها،

و بصلاحه تصلح، و بفساده تفسد،

و كذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية، و استقامة أمر المعاش أو عدمه.
و أما البقر فإنها تحرث الأرض عليها، و يستقى عليها الماء،
و إذا أخضبت السنة سمت،
و إذا أجذبت صارت عجافا،

و كذلك السنابل في الخصب، تكثر و تخضر،
و في الجذب تقل و تيبس و هي أفضل غلال الأرض.

3- ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قصَّ على قومه هذه
القصة الطويلة، و هو لم يقرأ كتب الأولين و لا دارس أحدا.
يراه قومه بين أظهرهم صباحا ومساء، و هو أمِّي لا يخط و لا يقرأ،
و هي موافقة، لما في الكتب السابقة، و ما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم و هم
يمكرون.

4- أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، و **كتمان ما تخشى مضرتة**،
لقول يعقوب ليوسف

(يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا)

5- أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله:

(فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا)

6- أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته و أقاربه
و أصحابه، و أنه ربما شملتهم، و حصل لهم ما حصل له بسببه،

كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ)

و لما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز و التمكين في الأرض و السرور و الغبطة ما حصل بسبب يوسف.

7- أن العدل مطلوب في كل الأمور،

لا في معاملة السلطان رعيته

و لا فيما دونه،

حتى في معاملة الوالد لأولاده،

في المحبة و الإيثار و غيره،

و أن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر، و تفسد الأحوال،

و لهذا، لما قدم يعقوب يوسف في المحبة و آثره على إخوته،

← جرى منهم ما جرى على أنفسهم، و على أبيهم و أخيه.

8- الحذر من شؤم الذنوب، و أن الذنب الواحد يستتبع ذنوبا متعددة،

و لا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم،

فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه و بين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع

من الحيل، و كذبوا عدة مرات،

و زوروا على أبيهم في القميص و الدم الذي فيه،

و في إتيانهم عشاء يكون،

و لا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة،

بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف،

و كلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب، و الافتراء،

ما حصل، و هذا شؤم الذنب، و آثاره التابعة و السابقة و اللاحقة.

9- أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية،

فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر،

مما هو أكبر أسباب النقص و اللوم،

ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، و السماح التام من يوسف و من أبيهم،

و الدعاء لهم بالمغفرة و الرحمة،

و إذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين.

و لهذا - في أصح الأقوال - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ)

و هم أولاد يعقوب الاثنا عشر و ذريتهم،

و مما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم كواكب نيرة،

و الكواكب فيها النور و الهداية الذي من صفات الأنبياء،

فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة.

10- ما من الله به على يوسف عليه السلام من العلم و الحلم، و مكارم الأخلاق،

و الدعوة إلى الله و إلى دينه، و عفوّه عن إخوته الخاطئين عفوًا بادرهم به،
و تتم ذلك بأن لا يشرب عليهم و لا يعيرهم به.

ثم برّه العظيم بأبويه، و إحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

11- أن بعض الشر أهون من بعض،

و ارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما،

فإن إخوة يوسف، لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقاءه أرضًا،

و قال قائل منهم:

(لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ)

كان قوله أحسن منهم و أخف، و بسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

12- أن الشيء إذا تداولته الأيدي و صار من جملة الأموال،

و لم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع،

أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة أو انتفاع، أو استعمال،

فإن يوسف عليه السلام باع إخوته بيعة حراما لا يجوز،

ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها،

و بقي عند سيده غلاما رقيقا، و سماه الله شراء،

و كان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

13- الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة،

و الحذر أيضا من المحبة التي يخشى ضررها،

فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توخّدها بيوسف، وحبها الشديد له،
الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة،
ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

14- أن الهمّ الذي همّ به يوسف بالمرأة ثم تركه الله، مما يقربه إلى الله زلفى،
لأن الهمّ داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، و هو طبيعة لأغلب الخلق،
فلما قابل بينه و بين محبة الله و خشيته،
غلبت محبة الله و خشيته داعي النفس و الهوى.

فكان ممن (خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)
و من السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم:
« رجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله »
و إنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، و يصير عزما،
ربما اقترن به الفعل.

15- أن من دخل الإيمان قلبه، و كان مخلصا لله في جميع أموره
فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، و صدق إخلاصه من أنواع السوء و الفحشاء
و أسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله.
(وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

على قراءة من قرأها بكسر اللام،

و من قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه،
و هو متضمن لإخلاصه هو بنفسه،

فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، و خلصه من السوء و الفحشاء.

16- أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلا فيه فتنة و أسباب معصية،

أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية،

لأن يوسف عليه السلام - لما راودته التي هو في بيتها - فر هاربا، يطلب الباب
ليتخلص من شرها،

17- أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه،

فلو تخاصم رجل و امرأته في شيء من أواني الدار،

فما يصلح للرجل فإنه للرجل،

و ما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينة،

و كذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة،

و العمل بالقافة في الأشباه و الأثر، من هذا الباب،

فإن شاهد يوسف شهد بالقريفة،

و حكم بها في قد القميص،

و استدل بقدّه من دبره على صدق يوسف و كذبها.

و مما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصُّواع في رحل أخيه على

الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة و لا إقرار،

فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق،
خصوصا إذا كان معروفا بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة،
و هذا أبلغ من الشهادة،
و كذلك وجود الرجل يتقياً الخمر،
أو وجود المرأة التي لا زوج لها و لا سيد، حاملا فإنه يقام بذلك الحد، ما لم
يقم مانع منه،

و لهذا سمى الله هذا الحاكم شاهدا فقال: (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا)
18- ما عليه يوسف عليه السلام من الجمال الظاهر و الباطن،
فإن جماله الظاهر:

أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب،
و للنساء اللاتي جمعتن حين لمنها على ذلك أن قطعن أيديهن
وقلن (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)
و أما جماله الباطن:

فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها،
و شهادة امرأة العزيز و النسوة بعد ذلك ببراءته،
و لهذا قالت امرأة العزيز:
(وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)
و قالت بعد ذلك:

(الآن حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)
و قالت النسوة:

(حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ)

1- أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية،

فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين -

1- إما فعل معصية،

2- وإما عقوبة دنيوية -

أن يختار العقوبة الدنيوية على مواجهة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة
في الدنيا و الآخرة،

ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر،
بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقي في النار.

19- أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله،

و يحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، و يتبرأ من حوله و قوته،
لقول يوسف عليه السلام:

(وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

20- أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، و ينهيانه عن الشر،
و أن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس،

و إن كان معصية ضارا لصاحبه.

21- أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء،

فعليه عبودية له في الشدة، ف— «يوسف» عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله،

فلما دخل السجن، استمر على ذلك،

و دعا الفتيين إلى التوحيد، و نهاهما عن الشرك،

ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته،

حيث ظنا فيه الظن الحسن و قالوا له:

(إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

و أتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرآهما متشوفين لتعبيرها عنده —

رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون

أنجح لمقصوده، و أقرب لحصول مطلوبه،

و بين لهما أولاً أن الذي أوصله إلى الحال التي رآياه فيها من الكمال و العلم،

إيمانه و توحيده، و تركه ملة من لا يؤمن بالله و اليوم الآخر،

و هذا دعاء لهما بالحال،

ثم دعاهما بالمقال، و بين فساد الشرك و برهن عليه،

و حقيقة التوحيد و برهن عليه.

22- أنه يبدأ بالأهم فالأهم، و أنه إذا سئل المفتي،

و كان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله،

فإن هذا علامة على نصح المعلم و فطنته، و حسن إرشاده و تعليمه،
فإن يوسف - لما سأله الفتيان عن الرؤيا -

قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

23- أن من وقع في مكروه و شدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله،

و أن هذا لا يكون شكوى للمخلوق،

فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض،

و لهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ)

24- أنه ينبغي و يتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه

و أن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع،

و أن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم،

فإن يوسف ~~عليه السلام~~ قد قال، و وصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه،

فلم يذكره و نسي،

فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى،

و جاءه سائلا مستفتيا عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف،

و لا وبخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جوابا تاما من كل وجه.

25- أنه ينبغي للمسئول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله،

و يرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه و دنياه،

فإن هذا من كمال نصحه و فطنته، و حسن إرشاده،

فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك،

بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة

الزرع، و كثرة جبايته.

26- أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه،

و طلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من

السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن،

27- فضيلة العلم، علم الأحكام و الشرع، و علم تعبير الرؤيا،

و علم التدبير و التربية؛

و أنه أفضل من الصورة الظاهرة، و لو بلغت في الحسن جمال يوسف،

فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة و السجن،

و بسبب علمه حصل له العز و الرفعة والتمكين في الأرض،

فإن كل خير في الدنيا و الآخرة من آثار العلم و موجباته.

28- أن علم التعبير من العلوم الشرعية،

و أنه يثاب الإنسان على تعلمه و تعليمه،

و أن تعبير المرائي داخل في الفتوى،
لقوله للفتيين: (**قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**)
و قال الملك: (**أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ**)

و قال الفتى ليوسف:

(**أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ**) (الآيات،

فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

29- أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم
أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحة،

و لم يقصد به العبد الرياء، و سلم من الكذب، لقول يوسف:

(**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**)

و كذلك لا تدم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق
الله وحقوق عباده،

و أنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره،

و إنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه كفاية،

أو كان موجودا غيره مثله،

أو أعلى منه،

أو لم يرد بها إقامة أمر الله،

فبهذه الأمور، ينهى عن طلبها، و التعرض لها.

30- أن الله واسع الجود و الكرم،

يجود على عبده بخير الدنيا و الآخرة،

و أن خير الآخرة له سبيلان:-

1-الإيمان

2-و التقوى،

و أنه خير من ثواب الدنيا و ملكها،

و أن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، و يشوقها لثواب الله،

و لا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا و لذاتها،

و هي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي،

و فضله العظيم لقوله تعالى:

(وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

30- أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر

يلحقهم - لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق و الأطعمة في السنين

المخصبات، للاستعداد للسنين المجدة،

و أن هذا غير مناقض للتوكل على الله،

بل يتوكل العبد على الله، و يعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه و دنياه.

31- حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات

جدا حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها،

لعلمهم بوفورها فيها، و حتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل،

لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

32- مشروعية الضيافة، و أنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول

يوسف لإخوته (أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

33- أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع و لا محرم،

فإن يعقوب قال لأولاده بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد

المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه،

و زعموا أن الذئب أكله

(بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا)

و قال لهم في الأخ الآخر:

(هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ)

ثم لما احتبسه يوسف عنده، و جاء إخوته لأبيهم قال لهم:

(بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا)

فهم في الأخيرة - و إن لم يكونوا مفرطين -

فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير إثم عليه و لا حرج.

34- أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره،

أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز،

و إن كان لا يقع شيء إلا بقضاء و قدر،

فإن الأسباب أيضا من القضاء و القدر، لأمر يعقوب حيث قال لبنيه:

(يَا بَنَيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ)

35- جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق،

و أن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد،

و إنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

36- أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يحب أن يطلع عليه،

أن يستعمل المعاريض القولية و الفعلية المانعة له من الكذب،

كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّواع في رحل أخيه،

ثم استخرجها منه، موهما أنه سارق،

و ليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته،

و قال بعد ذلك:

(مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ)

و لم يقل « من سرق متاعنا »

و كذلك لم يقل « إنا وجدنا متاعنا عنده »

بل أتى بكلام عام يصلح له و لغيره،
و ليس في ذلك محذور،

و إنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر،
و أنه يبقى عند أخيه

و قد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبينت الحال.

37- أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، و تحققه
إما بمشاهدة أو خبر من يثق به،

و تطمئن إليه النفس لقولهم (وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا)

38- هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام
حيث قضى بالتفريق بينه و بين ابنه يوسف،

الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة،

و يحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه و بينه مدة طويلة،
لا تقصر عن خمس عشرة سنة،

و يعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة

(وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه و بين ابنه الثاني شقيق يوسف،
هذا و هو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله،
قد وعد من نفسه الصبر الجميل،

و لا شك أنه وفى بما وعد به،

و لا ينافي ذلك، قوله:

(إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)

فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر،

و إنما الذي ينافيه، الشكوى إلى المخلوقين.

39- أن الفرج مع الكرب؛ و أن مع العسر يسرا،

فإنه لما طال الحزن على يعقوب و اشتد به إلى أنهى ما يكون،

ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب و مسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج،

فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة و اضطرارا،

فتم بذلك الأجر و حصل السرور،

و علم من ذلك أن الله يبتلي أوليائه بالشدة و الرخاء، و العسر و اليسر

ليمتحن صبرهم و شكرهم،

و يزداد - بذلك - إيمانهم و يقينهم و عرفانهم.

40- جواز إخبار الإنسان بما يجد،

و ما هو فيه من مرض أو فقر و نحوهما، على غير وجه التسخط،

لأن إخوة يوسف قالوا:

(يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ)

و لم ينكر عليهم يوسف .

41- فضيلة التقوى و الصبر، و أن كل خير في الدنيا و الآخرة

فمن آثار التقوى و الصبر، و أن عاقبة أهلها، أحسن العواقب، لقوله:

(قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

42- أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة و فقر و سوء حال،

أن يعترف بنعمة الله عليه، و أن لا يزال ذاكرا حاله الأولى،

ليحدث لذلك شكرا كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ)

43- لطف الله العظيم بيوسف، حيث نقله في تلك الأحوال،

و أوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات و رفيع الدرجات.

44- أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائما في تثبيت إيمانه،

و يعمل الأسباب الموجبة لذلك، و يسأل الله حسن الخاتمة،

و تمام النعمة لقول يوسف عليه السلام:

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

○ فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة،

و لا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك.
فنسأله تعالى علما نافعا و عملا متقبلا إنه جواد كريم.
تم تفسير سورة يوسف و أبيه وإخوته عليهم الصلاة و السلام،
و الحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الرعد، و هي مدنية، و قيل: مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۖ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ
يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَائِ رَبِّكُمْ تَوْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي
مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْيَلَّ
النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ
أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي
الْأَكْثَلِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ
أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ أَلْفَىٰ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
وَأُولَٰئِكَ الْأَعْلَىٰ ۚ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾
(الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۖ)

يخبر تعالى أن هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه
العباد من أصول الدين و فروعه،

(وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)

و أن الذي أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق المبين،

لأن أخباره صدق، و أوامره و نواهيه عدل، مؤيدة بالأدلة و البراهين القاطعة،
فمن أقبل عليه و على علمه، كان من أهل العلم بالحق،
الذي يوجب لهم علمهم العمل بما أحب الله.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

بهذا القرآن،

إما جهلا و إعراضا عنه و عدم اهتمام به،

و إما عنادا و ظلما،

فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به، لعدم السبب الموجب للارتفاع.

*** هَوْلِهِ: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يُوسُفَ: 103]

أَي: مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَ الْجَلَاءِ وَ الْوُضُوحِ،

لَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ لِمَا فِيهِمْ مِنَ الشَّقَاقِ وَ الْعِنَادِ وَ النَّفَاقِ.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ

يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَائِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي

مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا وَنَهْرًا وَمِنْ كُلِّ الشَّرَاةِ جَعَلَ فِيهَا رِوَجِينَ اثْنَيْنِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ

النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَجَوِّرٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ

أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي

الْأُكُلِ ﴿٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

يخبر تعالى عن انفراده بالخلق و التدبير، و العظمة و السلطان
الذال على أنه وحده المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له

فقال: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ)

على عظمها و اتساعها بقدرته العظيمة،

(بِفَيْرٍ عَمْدٍ تَرَوْنَهَا)

أي: ليس لها عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد، لرأيتموها

(ثُمَّ)

بعد ما خلق السماوات و الأرض

(أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

العظيم الذي هو أعلى المخلوقات، استواء يليق بجلاله و يناسب كماله.

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

لمصالح العباد و مصالح مواشيهم و ثمارهم،

(كُلٌّ) من الشمس و القمر

(يَجْرِي) بتدبير العزيز العليم،

(لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)

بسير منتظم، لا يفتران و لا ينيان،

حتى يجيء الأجل المسمى و هو طي الله هذا العالم،

و نقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار،
 فعند ذلك يطوي الله السماوات و يبذلها،
 و يغير الأرض و يبذلها. فتكور الشمس و القمر،
 و يجمع بينهما فيلقيان في النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة؛
 فيتحسر بذلك أشد الحسرة و ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.
 ***الْمُرَادُ أَنَّهِنَّمَا يَجْرِيَانِ إِلَى انْقِطَاعِهِمَا بِقِيَامِ السَّاعَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
 {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [يس: 38] .

و قوله (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ)
 *الميسر: يوضح لكم الآيات الدالة على قدرته
 ○ هذا جمع بين الخلق و الأمر،
 أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك،
 يدبر الأمور في العالم العلوي و السفلي،
 فيخلق و يرزق، و يغني و يفقر، و يرفع أقواما و يضع آخرين،
 و يعز و يذل، و يخفض و يرفع، و يقيل العثرات، و يفرج الكربات،
 و ينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه،
 و جرى بها قلمه، و يرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره.
 و ينزل الكتب الإلهية على رسله
 و يبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع و الأوامر و النواهي،
 و يفصلها غاية التفصيل ببيانها و إيضاها و تمييزها،

(لَعَلَّكُمْ)

بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية و الآيات القرآنية،

(بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

*الميسر: لتوقنوا بالله و المعاد إليه،

فتصدقوا بوعده و وعيده و تخلصوا العبادة له وحده.

○ فإن كثرة الأدلة و بيانها و وضوحها،

من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية،

خصوصا في العقائد الكبار، كالبعث و النشور و الإخراج من القبور.

و أيضا فقد علم أن الله تعالى حكيم لا يخلق الخلق سدى، و لا يتركهم عبثا،

فكما أنه أرسل رسله و أنزل كتبه لأمر العباد و نهيه،

فلا بد أن ينقلهم إلى دار يحل فيها جزاؤه،

فيجازي المحسنين بأحسن الجزاء،

و يجازي المسيئين بإساءتهم.

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

*الميسر: و هو سبحانه الذي جعل الأرض متسعة ممتدة،

و هيأها لمعاشكم

○ أي: خلقها للعباد، و وسعها و بارك فيها و مهدها للعباد،

و أودع فيها من مصالحهم ما أودع،

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ)

أي: جبالا عظاما، لئلا تميد بالخلق،

فإنه لولا الجبال لمادت بأهلها، [لأنها على تيار ماء]

لا ثبوت لها و لا استقرار إلا بالجبال الرواسي، التي جعلها الله أوتادا لها.

(وَ) جعل فيها

(وَأَنْهَارًا)

تسقي الآدميين و بهائمهم و حروثهم،

فأخرج بها من الأشجار و الزروع و الشمار خيرا كثيرا

و لهذا قال: **(وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)**

أي: صنفين مما يحتاج إليه العباد.

(يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ)

فتظلم الآفاق فيسكن كل حيوان إلى مأواه

و يستريحون من التعب و النصب في النهار،

ثم إذا قضوا مأربهم من النوم غشي النهار الليل

فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم و أعمالهم في النهار.

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ)

على المطالب الإلهية

(لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

فيها، و ينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن الذي خلقها و دبرها و صرفها،
هو الله الذي لا إله إلا هو،
و لا معبود سواه،

و أنه عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم،

و أنه القادر على كل شيء،

الحكيم في كل شيء المحمود على ما خلقه و أمر به تبارك و تعالى .

○ و من الآيات على كمال قدرته و بديع صنعته أن جعل

(وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ)

***أراض تُجاوِرُ بَعْضُهَا بَعْضًا،

مَعَ أَنَّ هَذِهِ طَيِّبَةٌ تُنْبِتُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ،

و هَذِهِ سَبَخَةٌ مَالِحَةٌ لَا تُنْبِتُ شَيْئًا.

وَ كَذَا يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اخْتِلَافُ أَلْوَانِ بَقَاعِ الْأَرْضِ،

فَهَذِهِ تُرْبَةٌ حُمْرَاءُ، وَ هَذِهِ بَيْضَاءُ، وَ هَذِهِ صَفْرَاءُ، وَ هَذِهِ سَوْدَاءُ،

وَ هَذِهِ مُحَجَّرَةٌ وَ هَذِهِ سَهْلَةٌ، وَ هَذِهِ مُرْمَلَةٌ، وَ هَذِهِ سَمِيكَةٌ،

وَ هَذِهِ رَقِيقَةٌ، وَ الْكُلُّ مُتَجَاوِرَاتٌ.

فَهَذِهِ بِصَفَتِهَا، وَ هَذِهِ بِصَفَتِهَا الْآخَرَى،
فَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَ لَا رَبَّ سِوَاهُ.
الاعجاز العلمي:

الرابط

*و يفهم القارئ العادي من هذه الآية تجاور حقولا لمزارعين بما فيها من جنات
و أعناب و نخيل،

و لكن المتمعن علمياً في معنى هذه الآية يرى:-

إذا كان جيولوجياً أن الألواح القارية

(التي نتجت عن تصدع القشرة الأرضية على مستوى الكوكب تحت البحار والمحيطات
واليابسة) بدليل قوله تعالى:

(والأرض ذات الصدع)

هي القطع المقصودة قرآنيّاً و التي تنقسم إليها كل القشرة الأرضية، أي:

(القطع المتجاورات)

و لو كانت الأرض مستوية مسطحة لتجاورت كل القطع ما عدا القطع الموجودة في
أطرافها بينما لكي يتحقق التجاور للجميع طبقاً للنص القرآني:

﴿قطع متجاورات﴾

فلا بد أن يكون السطح كروياً لأن انحناء السطح يؤدي إلى تجاور جميع القطع،
الأمر الذي لا يتوفر مطلقاً في السطح المستوي..

فهل أدركت عزيزي القارئ دقة التعبير القرآني في عبارة (قطع متجاورات)..

وَجَنَّاتٌ (

فيها أنواع الأشجار

(مَنْ أَعْتَبَ وَزَرَعُ)

و غير ذلك،

(وَنَخِيلُ)

و النخيل التي بعضها

(صِنَوَانُ)

أي: عدة أشجار في أصل واحد،

***الصَّنَوَانُ:

هِيَ الْأَصُولُ الْمُجْتَمِعَةُ فِي مَنَبَتٍ وَاحِدٍ،
كَالرُّمَّانِ وَالتِّينِ وَبَعْضِ النَّخِيلِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ

(وَعَبْرُ صِنَوَانٍ)

بأن كان كل شجرة على حدةها،

***وَعَبْرُ الصَّنَوَانِ:

مَا كَانَ عَلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، كَسَائِرِ الْأَشْجَارِ،

وَمِنْهُ سُمِّيَ عَمُّ الرَّجُلِ صِنُو أَبِيهِ،

كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:

983-مسلم: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

قَالَ لِعُمَرَ: " أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُو أَبِيهِ؟ " ()

أي مثله و نظيره يعني أنهما من أصل واحد يقال لنختين طلعتا من عرق واحد
صنوان ولأحدهما صنو ويكون جمعه على صورة مثناه المرفوع و يتميزان بالإعراب

*الميسر: و نخيلاً مجتمعاً في منبت واحد، و غير مجتمع فيه
○ و الجميع

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ)

و أرضه واحدة

(وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ^ع)

لونا و طعما و نفعا و لذة؛

فهذه أرض طيبة تنبت الكأ و العشب الكثير و الأشجار و الزروع،

و هذه أرض تلاصقها لا تنبت كأ و لا تمسك ماء،

و هذه تمسك الماء و لا تنبت الكأ

و هذه تنبت الزرع و الأشجار و لا تنبت الكأ

و هذه الثمرة حلوة و هذه مرة و هذه بين ذلك.

فهل هذا التنوع في ذاتها و طبيعتها؟

أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم،

و تقودهم إلى ما يرشدهم و يعقلون عن الله وصاياه و أوامره و نواهيه،

○ و أما أهل الإعراض، و أهل البلادة فهم في ظلماتهم يعمهون،

و في غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم سبيلا و لا يعون له قبيلا.

❖ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءَاكُنَّا تُرَابًا إِنْ نَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾

○ يحتمل أن معنى قوله (وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ)

من عظمة الله تعالى و كثرة أدلة توحيده،

فإن العجب - مع هذا- إنكار المكذبين و تكذيبهم بالبعث،

و قولهم (قَوْلُهُمْ أَءَاكُنَّا تُرَابًا إِنْ نَأْتِي بِخَلْقٍ)

أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم، أنهم بعد ما كانوا ترابا،

أن الله يعيدهم، فإنهم - من جهلهم- [قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق.]

فلما رأوا هذا ممتنعا في قدرة المخلوق ظنوا أنه ممتنع على قدرة الخالق،

و نسوا أن الله خلقهم أول مرة و لم يكونوا شيئا.

○ و يحتمل أن معناه: (وَإِنْ تَعَجَّبَ) من قولهم و تكذيبهم للبعث،

فإن ذلك من العجائب، فإن الذي توضح له الآيات،

و يرى من الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك و الريب،

ثم ينكر ذلك فإن قوله من العجائب.

و لكن ذلك لا يستغرب على (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ)

و جحدوا وحدانيته، و هي أظهر الأشياء و أجلاها،

(وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ)

المانعة لهم من الهدى

* الميسر: و أولئك تكون السلاسل من النار في أعناقهم يوم القيامة،

(فِي أَعْنَاقِهِمْ^ط)

حيث دُعُوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا،

و غُرِضَ عليهم الهدى فلم يهتدوا،

فقلبت قلوبهم و أفندتهم عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة،

(وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ^ط هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

لا يخرجون منها أبدا.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزِدُّهُ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزِدُّهُ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَعَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ أَفْلًا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ)

*الميسر : و يستعجلك المكذبون بالعقوبة التي لم أعجلهم بها

(قَبْلَ الْحَسَنَةِ)

الإيمان الذي يرجى به الأمان و الحسنات،

○ يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله المشركين به،

الذين وعظوا فلم يتعظوا، و أقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها،
بل جاهروا بالإنكار،

و استدلووا بحلم الله الواحد القهار عنهم، و عدم معاجلتهم بذنوبهم أنهم على
حق،

و جعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب،

و يقول قائلهم: (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ

السَّمَاءِ أَوْ ارِثْنَا بِعَذَابٍ آلِيمٍ)

*** كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ:

{وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ* لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ

كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ}

[الحجر: 6-8]

وَ قَالَ تَعَالَى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ

وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ

بِالْكَافِرِينَ} [العنكبوت: 53، 54]

وَ قَالَ: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} [المعارج: 1]

وَ قَالَ: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ

أَنَّهَا الْحَقُّ} [الشورى: 18]

{وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [ص: 16]
أَي: حِسَابَنَا وَ عِقَابَنَا،

(و) الحال أنه (وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ^ط)

أي: وقائع الله و أيامه في الأمم المكذبين،
أفلا يتفكرون في حالهم و يتركون جهلهم

(وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ^ط)

أي: لا يزال خيره إليهم، و إحسانه و بره و عفوهِ نازلاً إلى العباد،
و هم لا يزال شرهم و عصيانهم إليه صاعداً.
يعصونه فيدعوهم إلى بابه،

و يجرمون فلا يحرمهم خيره و إحسانه،

فإن تابوا إليه فهو حبيبهم لأنه يحب التوابين، و يحب المتطهرين

و إن لم يتوبوا فهو طيبهم، يتليهم بالمصائب، ليظهرهم من المعايب

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

***إِنَّهُ ذُو عَفْوٍ وَ صَفْحٍ وَ سَتْرٍ لِلنَّاسِ مَعَ أَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ وَ يُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ
وَ النَّهَارِ.

ثُمَّ قَرَنَ هَذَا الْحُكْمَ بِأَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، لِيَعْتَدِلَ الرَّجَاءُ وَ الْخَوْفُ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ

الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام: 147]

وَقَالَ: {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الْأَعْرَافِ: 167]
وَقَالَ: {نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}
[الْحَجَرِ: 49، 50]

إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَجْمَعُ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ
(وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)

على من لم يزل مصرا على الذنوب،
قد أبى التوبة و الاستغفار و الالتجاء إلى العزيز الغفار،
فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم، فإن أخذه أليم شديد.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾
(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

أي: و يقترح الكفار عليك من الآيات، التي يعينونها

و يقولون: (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ)

*الميسر: و يقول كفار «مكة» :-

هلا جاءته معجزة محسوسة كعصا موسى و ناقة صالح
○ و يجعلون هذا القول منهم، عذرا لهم في عدم الإجابة إلى الرسول،
و الحال أنه منذر ليس له من الأمر شيء، و الله هو الذي ينزل الآيات.
و قد أيده بالأدلة البينات التي لا تخفى على أولي الألباب،
و بها يهتدي من قصده الحق،

و أما الكافر الذي - من ظلمه و جهله -

يقترح على الله الآيات فهذا اقتراح منه باطل و كذب و افتراء .

فإنه لو جاءت أي آية كانت لم يؤمن و لم ينقد؛

لأنه لم يمتنع من الإيمان، لعدم ما يدل على صحته

و إنما ذلك لهوى نفسه و اتباع شهوته

***يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ كُفْرًا وَ عِنَادًا:-

لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ، كَمَا تَعْتَنُوا عَلَيْهِ

أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا،

وَ أَنْ يُزِيلَ عَنْهُمْ الْجِبَالَ،

وَ يَجْعَلَ مَكَانَهَا مَرْوَجًا وَ أَنْهَارًا،

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا

نُحُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَ مَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الْإِسْرَاءِ: 59] .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ}

أَيُّ: إِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تُبَلِّغَ رِسَالَةَ اللَّهِ الَّتِي أَمَرَكَ بِهَا،

{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [البَقَرَة: 272] .

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

أي: داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل و أتباعهم،

و معهم من الأدلة و البراهين ما يدل على صحة ما معهم من الهدى.

***كَمَا قَالَ: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فَاطِر: 24]

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدُّهُ^ط وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ
 بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ
 الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ
 يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ^ط
 وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾

يخبر تعالى بعموم علمه و سعة اطلاعه و إحاطته بكل شيء

فقال: (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ)

من بني آدم و غيرهم،

(وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ)

أي: تنقص مما فيها إما أن يهلك الحمل أو يتضاءل أو يضمحل

*قال الدكتور زغلول النجار(من مقطع على اليوتيوب)

من الثابت أن الجنين في مراحله الأولى إذا قُدر له الوفاة:-

((يتحلل الي سائل و يتشربه جدار الرحم)))

دون أن تعلم المرأة أنها حملت

و دون أن يعلم أحد انها حملت

*و يشبه الله تحلل هذا الجنين في مراحله الأولى بغيض الماء في الأرض

كما قال الله {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ}

[هود: 44]

(وَمَا تَزِدُّهُ^ط)

الأرحام و تكبر الأجنة التي فيها،

*قال الدكتور زغلول النجار:

وإذا بقي فيؤدي الي زيادة بطن هذه المرأة الحامل

(وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)

لا يتقدم عليه و لا يتأخر و لا يزيد و لا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته و علمه.

***يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَآمِ عِلْمِهِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ،
وَ أَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا تَحْمِلُهُ الْحَوَامِلُ مِنْ كُلِّ إِنَاثِ الْحَيَوَانَاتِ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} [لُقْمَانَ: 34]

أَي: مَا حَمَلَتْ مِنْ ذِكْرٍ أَوْ أُنْثَى، أَوْ حَسَنٍ أَوْ قَبِيحٍ، أَوْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ،
أَوْ طَوِيلٍ الْعُمُرِ أَوْ قَصِيرُهُ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي

بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النَّجْم: 32] .

وَ قَالَ تَعَالَى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ

ثَلَاثٍ} [الزُّمَرِ: 6]

أَي: خَلَقَكُمْ طَوْرًا مِنْ بَعْدِ طَوْرٍ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي

قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}

[الْمُؤْمِنُونَ: 12: 14]

وَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا،
ثُمَّ يَكُونُ عَاقِبَةُ مِثْلِ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مَضْغَةٌ مِثْلَ ذَلِكَ،
ثُمَّ يَبْعَثُ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ:-
يَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَ عُمْرَهُ، وَ عَمَلَهُ، وَ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ" () .

*** وَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ:
"فَيَقُولُ الْمَلَكُ: أَيُّ رَبٍّ، أَذَكَرٌّ أَمْ أُنْثَى؟
أَيُّ رَبٍّ، أَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ؟
فَمَا الرِّزْقُ؟
فَمَا الْأَجَلُ؟
فَيَقُولُ اللَّهُ، وَ يَكْتُبُ الْمَلَكُ" () .

فإنه (**عَلِيٌّ الْقَلْبِي**)

*الميسر: الله عالم بما خفي عن الأبصار،

(**وَالشَّهَادَةُ**)

*الميسر: و بما هو مشاهد،

(**الْكَبِيرُ**)

في ذاته و أسمائه و صفاته

(**الْمُتَعَالِ**)

البخاري 3208

رواه مسلم في صحيحه برقم (2645) من حديث حذيفة بن أسيد، رضي الله عنه.

على جميع خلقه بذاته و قدرته و قهره.

(سَوَاءٌ مِنْكُمْ)

في علمه و سمعه و بصره.

*الميسر: يستوي في علمه تعالى

(مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ)

*الميسر: مَنْ أَخْضَى الْقَوْلَ مِنْكُمْ

(وَمَنْ جَهَرَ بِهِ)

*** كَمَا قَالَ: {وَأَنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه: 7]

وَ قَالَ: {وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} [النمل: 25]

وَ قَالَتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:-

سُبْحَانَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ،

وَ اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

وَ أَنَا فِي جَنْبِ الْبَيْتِ، وَ إِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ كَلَامِهَا،

فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ

يَسْمَعُ نَحْوَ رُكْمًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: 1] .

(وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالْإِيلِ)

أي: مستقر بمكان خفي فيه،

(وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

أي: داخل سربه في النهار

و السرب:-

هو ما يختفي فيه الإنسان إما جوف بيته أو غار أو مغارة أو نحو ذلك.

(لَهُ) أي: للإنسان

(مُعَقَّبَتٌ)

من الملائكة يتعاقبون في الليل و النهار.
***لِلْعَبْدِ مَلَائِكَةٌ يَتَعَاقِبُونَ عَلَيْهِ، حَرَسَ بِاللَّيْلِ وَ حَرَسَ بِالنَّهَارِ،
يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْأَسْوَءِ وَ الْحَادِثَاتِ،
كَمَا يَتَعَاقَبُ مَلَائِكَةُ آخَرُونَ لِحِفْظِ الْأَعْمَالِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ،
مَلَائِكَةُ بِاللَّيْلِ وَ مَلَائِكَةُ بِالنَّهَارِ،

(مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)

فَانْتَانَ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمَالِ يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ،
صَاحِبُ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ،
وَ صَاحِبُ الشِّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ،
وَ مَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِهِ وَ يَحْرُسَانِهِ،
وَاحِدًا مِنْ وَرَائِهِ وَ آخَرَ مِنْ قُدَّامِهِ،
فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَمْلاكٍ بِالنَّهَارِ،
وَ أَرْبَعَةِ آخَرِينَ بِاللَّيْلِ بَدَلًا حَافِظَانِ وَ كَاتِبَانِ،

*** صحيح البخاري

555 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

قَالَ: " يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ بِاللَّيْلِ وَ مَلَائِكَةُ بِالنَّهَارِ،

وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَ صَلَاةِ الْعَصْرِ،
ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ:-
كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟
فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَ هُمْ يُصَلُّونَ
وَ أَتَيْنَاهُمْ وَ هُمْ يُصَلُّونَ " ()
(يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

أي: يحفظون بدنه و روحه من كل من يريد به بسوء،
و يحفظون عليه أعماله،
و هم ملازمون له دائما،
فكما أن علم الله محيط به،
فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد،
بحيث لا تخفى أحوالهم و لا أعمالهم، و لا ينسى منها شيء،
***وَ قَالَ عِزْرَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}
قَالَ: مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ،
فَإِذَا جَاءَ قَدْرُ اللَّهِ خَلُّوا عَنْهُ.
***صحيح مسلم

(يتعاقبون فيكم) تأتي طائفة بعد الأخرى.
(يعرج) يصعد إلى السماء.
(فيسألهم وهو أعلم بهم) أي فيسأل الله تعالى الملائكة عن حال المصلين
و هو أعلم بحالهم و الحكمة من سؤالهم إظهار شهادتهم لبني آدم بالخير

(2814) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ» قَالُوا: وَ إِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «وَ إِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ» ()

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ)

من النعمة و الإحسان و رغد العيش

(حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر
و من الطاعة إلى المعصية،
أو من شكر نعم الله إلى البطـر بها

فيسلبهم الله عند ذلك إياها.

و كذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية،
فانتقلوا إلى طاعة الله، غيّر الله عليهم ما كانوا فيه
من الشقاء إلى الخير و السرور و الغبطة و الرحمة،

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا)

أي: عذابا و شدة و أمرا يكرهونه، فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم.

(فَ) إنه

(فَلَا مَرَدَّ لَهُ^ع)

و لا أحد يمنعهم منه،

(وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

يتولى أمورهم فيجلب لهم المحبوب،

و يدفع عنهم المكروه،

فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن

يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾

يقول تعالى: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا)

أي: يخاف منه الصواعق و الهدم و أنواع الضرر، على بعض الثمار و نحوها

(وَطَمَعًا)

و يطمع في خيره و نفعه،

(وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

بالمطر الغزير الذي به نفع العباد و البلاد.

***وَيَخْلُقُهَا مَنْشَأَةً جَدِيدَةً، وَهِيَ لِكَثْرَةِ مَائِهَا ثَقِيلَةٌ قَرِيبَةٌ إِلَى الْأَرْضِ.

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ)

و هو الصوت الذي يسمع من السحاب المزعج للعباد،

فهو خاضع لربه مسبح بحمده، (و) تسبح

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإِسْرَاءُ: 44] .

***2483 عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَقْبَلْتُ يَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ،

فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ، عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَاتَّبَعْنَاكَ،

فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَا أَخَذَ إِسْرَائِيلُ عَلَى بَنِيهِ، إِذْ قَالُوا:

اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ،

قَالَ: " هَاتُوا "

قَالُوا: أَخْبَرْنَا عَنْ عَلَامَةِ النَّبِيِّ،

قَالَ: " تَنَامُ عَيْنَاهُ، وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ "

قَالُوا: أَخْبَرْنَا كَيْفَ تُؤَنَّثُ الْمَرْأَةُ، وَكَيْفَ تُذَكَّرُ؟

قَالَ: " يَلْتَقِي الْمَاءَانِ، فَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَتْ،

وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ أُنْثَتْ "

قَالُوا: أَخْبَرْنَا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟

قَالَ: " كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النِّسَاءِ،

فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَاطِمُهُ إِلَّا أَلْبَانَ كَدَا وَكَدَا -

قَالَ أَبِي: " قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي الْإِبِلَ " - فَحَرَّمَ لِحُومَهَا "

قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالُوا: أَخْبَرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟

قَالَ: " مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ بِيَدِهِ -
أَوْ فِي يَدِهِ - مَخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ، يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ،
يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ "

قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟
قَالَ: " صَوْتُهُ "

قَالُوا: صَدَقْتَ، إِنَّمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي تُبَايِعُكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا،
فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ،
فَأَخْبِرْنَا مِنْ صَاحِبِكَ؟
قَالَ: " جِبْرِيلُ عليه السلام "

قَالُوا: جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْعَذَابِ عَدُونًا،
لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ،
لَكَانَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ} [البقرة: 97]
إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (1)

* الجامع الصحيح للسنن والمسانيد
قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ؟ (2)
(قَالَ: " زَجْرُهُ السَّحَابَ إِذَا زَجَرَهُ (3)
حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ " (4)

(حم) 2483 ، (نتمذي) 3117

(إِذَا زَجَرَهُ) أَيُّ: إِذَا سَاقَهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا}

يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ تَزْجُرُ السَّحَابَ، أَيُّ: تَسُوقُهُ. تحفة الأحوذى - (ج 7 / ص 444)

(نتمذي) 3117

(وَالْمَلَكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ)

أي: خشعا لربهم خائفين من سطوته،

(وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ)

و هي هذه النار التي تخرج من السحاب،

(فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ)

*جاء في الصحيح المسند من أسباب النزول:

عن ثابت عن أنس قال :-

بعث رسول الله ﷺ رجلا من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية

يدعوه إلى الله تبارك وتعالى

فقال أيش ربك الذي تدعوني إليه من حديد هو؟

من نحاس هو؟

من فضة هو؟

من ذهب هو؟ فأتى النبي ﷺ

فأخبره فأعاد النبي ﷺ الثانية.

فقال مثل ذلك. فأرسله إليه الثالثة.

فقال مثل ذلك. فأتى النبي ﷺ

فأرسل الله تبارك وتعالى عليه صاعقة فأحرقتة

فقال رسول الله ﷺ:

إن الله تبارك وتعالى قد أرسل على صاحبك صاعقة فأحرقتة.
فنزلت هذه الآية: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي
اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} .

(وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ)

من عباده بحسب ما شاءه و أرادته
***يَشْكُونُ فِي عَظَمَتِهِ،

(وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

أي: شديد الحول و القوة فلا يريد شيئا إلا فعله،
و لا يتعاصى عليه شيء و لا يفوته هارب.
فإذا كان هو وحده الذي يسوق للعباد الأمطار و السحب التي فيها مادة
أرزاقهم،
و هو الذي يدبر الأمور،
و تخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها،
و تزعج العباد و هو شديد القوة —
فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.
و لهذا قال:

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ
وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَظِلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي
الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ
الْوَحِيدُ الْقَهُّورُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا
الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۚ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾
لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

وَيَسَّالُهَا ۚ ﴿١٨﴾

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ
وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾

(لَهُ) أي: لله وحده

(دَعْوَةُ الْحَقِّ)

و هي: عبادته وحده لا شريك له،

1- وإخلاص دعاء العبادة

2- ودعاء المسألة له تعالى،

أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له:-

الدعاء، و الخوف، و الرجاء، و الحب، و الرغبة، و الرهبة، و الإنابة؛

لأن ألوهيته هي الحق، و ألوهية غيره باطلة

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ)

من الأوثان و الأنداد التي جعلوها شركاء لله.

(لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ)

أي: لمن يدعوها و يعبدها بشيء قليل و لا كثير لا من أمور الدنيا

و لا من أمور الآخرة

(إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّتِهِ إِلَى الْمَاءِ)

الذي لا تناله كفاه لبعده،

(لِيَبْلُغَ)

بسط كفيه إلى الماء

(فَأَهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ)

فإنه عطشان و من شدة عطشه يتناول بيده،

و يبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه، فلا يصل إليه.
■ كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة لا يستجيبون لهم بشيء
و لا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة
لأنهم فقراء كما أن من دعوهم فقراء،
لا يملكون مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء،
و ما لهم فيهما من شرك و ما له منهم من ظهير.

(وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عباداتهم و دعائهم؛
لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها،
و لما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين،
كانت عبادته حقًا متصلة النفع لصاحبها في الدنيا و الآخرة.
○ و تشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من
أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال،
فكما أن هذا محال، فالمشبه به محال،
و التعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء
كما قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أي: جميع ما احتوت عليه السماوات و الأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له

(طَوْعًا)

فالطوع لمن يأتي بالسجود و الخضوع اختيارا كالمؤمنين،

(وَكْرَهًا)

و الكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، و حاله و فطرته تكذبه في ذلك،

(وَظِلًّا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

أي: و يسجد له ظلال المخلوقات أول النهار و آخره و سجد كل شيء بحسب حاله كما قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ

وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [النحل: 48].

○ فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعا و كرها كان هو الإله حقا

المعبود المحمود حقا و إلهية غيره باطلة،

و لهذا ذكر بطلانها و برهن عليه بقوله:

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا

وَلَا ضَرًّا قُلُّ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ

أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ

قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

(قُلُّ)

أي: لهؤلاء المشركين به أوثانا و أندادا يحبونها كما يحبون الله،
و يبذلون لها أنواع التقربات و العبادات:-

(مَنْ رَبُّ)

*الميسر: خالق و مدبر

(السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(قُلِ اللَّهُ)

*الميسر: هو الخالق المدبر

(قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ)

أفتأهت عقولكم حتى اتخذتم

(مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)

تتولونهم بالعبادة و ليسوا بأهل لذلك؟

فإنهم (لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

و تتركون ولاية من هو كامل الأسماء و الصفات،

المالك للأحياء و الأموات، الذي بيده الخلق و التدبير و النفع و الضر؟

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ^٤)

فما تستوي عبادة الله وحده، و عبادة المشركين به،

كما لا يستوي الأعمى و البصير، و كما لا تستوي الظلمات و النور.

(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ)

و جعلوا له شركاء زعموا أنهم خلقوا كخلقه و فعلوا كفعله،

(فَتَشَبِهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ^٥)

*الميسر: فتشابه عليهم خلق الشركاء بخلق الله،

فاعتقدوا استحقاقهم للعبادة؟

فإن كان عندهم شك و اشتباه:-

فأزل عنهم هذا الاشتباه و اللبس بالبرهان الدال على توحيد الإله بالوحدانية،

فـ**(قُلْ)** لهم:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

فإنه من المُحال أن يَخْلُقَ شيء من الأشياء نفسه.

و من المُحال أيضا أن يوجد من دون خالق،

فتعين أن لها إلها خالقا لا شريك له في خلقه

لأنه **(وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)**

فإنه لا توجد الوحدة و القهر إلا لله وحده،
فالمخلوقات و كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره
ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه،
حتى ينتهي القهر للواحد القهار (Ī)
فالقهر و التوحيد متلازمان متعينان لله وحده،
فتبين بالدليل العقلي القاهر أن:-
ما يدعى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات
و بذلك كانت عبادته باطلة.

شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة (ص: 67)
وهو الذي قهر جميع الكائنات ، وذلت له جميع المخلوقات، ودانت لقدرته ومشيتته مواد
وعناصر العالم العلوي والسفلي ، فلا يحدث حادث ولا يسكن ساكن إلا بإذنه،
وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وجميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون ،
لا يملكون لأنفسهم نفعا، و لا ضرا، و لا خيرا و لا شرا .

(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ)

*الميسر: فجرت به أودية الأرض

(يَقْدِرُهَا)

صغرها و كبرها،

(فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ)

*الميسر: فحمل السيل

(زَبَدًا رَابِيًا)

*الميسر: غثاء طافياً فوقه لا نفع فيه

○ شبه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب و الأرواح،

بـالماء الذي أنزله لحياة الأشباح،

○ و شبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد،

بـما في المطر من النفع العام الضروري،

○ و شبه القلوب الحاملة للهدى و تفاوتها

بـالأودية التي تسيل فيها السيول،

☆ فواد كبير يسع ماء كثيرا، كقلب كبير يسع علما كثيرا،

☆ و واد صغير يأخذ ماء قليلا كقلب صغير، يسع علما قليلا و هكذا.

*الميسر: و ضرب مثلا آخر:-

(وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ)

هو المعادن يوقدون عليها النار لصهرها طلباً للزينة
كما في الذهب و الفضة،

(أَوْ مَتَّعَ)

أو طلباً لمنافع ينتفعون بها كما في النحاس،

(زَبَدٌ مِّثْلَهُ^ع)

فيخرج منها خبثها مما لا فائدة فيه كالذي كان مع الماء،
○ و شبه ما يكون في القلوب من الشهوات و الشبهات عند وصول الحق
إليها

بـالزبد الذي يعلو الماء و يعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد
تخليصها و سبكها،

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً^ط)

و أنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له حتى تذهب و تضمحل،

(وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ^ع)

و يبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي و الحلية الخالصة.

○ كذلك الشبهات و الشهوات لا يزال القلب يكرها،

و يجاهدها بالبراهين الصادقة، و الإرادات الجازمة،

حتى تذهب و تضمحل و يبقى القلب خالصا صافيا

ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق و إشاره، و الرغبة فيه،

فالباطل يذهب و يَمْحَقُهُ الحق

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

و قال هنا: (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)

ليتضح الحق من الباطل و الهدى و الضلال.

*الميسر: بمثل هذا يضرب الله المثل للحق و الباطل

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ

جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ^ع

أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ^ط

وَيُسْـَٔلُ لَهُمُ الْهَادُونَ (١٨)

لما بيّن تعالى الحق من الباطل ذكر أن الناس على قسمين:-

1- مستجيب لربه، فذكر ثوابه،

2- و غير مستجيب فذكر عقابه

فقال: (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ)

أي: انقادت قلوبهم للعلم و الإيمان و جوارحهم للأمر و النهي،

و صاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم،

فلهم (الْحُسْنَىٰ^ع)

أي: الحالة الحسنة و الثواب الحسن.

فلهم من الصفات أجلها و من المناقب أفضلها

و من الثواب العاجل و الآجل ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر،

*** كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذِي الْقُرَيْنَيْنِ أَنَّهُ قَالَ:

{ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ

آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا

[الْكَهْف: 87، 88]

و قَالَ تَعَالَى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يُونُس: 26] .

(وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

***لم يطيعوا الله

○ بعد ما ضرب لهم الأمثال و بيّن لهم الحق، لهم الحالة غير الحسنة،

ف—(لَهُمْ وَأَنْتَ لَهُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

من ذهب و فضة و غيرها،

(وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافَتَدَوَّبُوهُ^٤)

من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم و أنى لهم ذلك!!؟

(أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ)

و هو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ

و ما ضيعوه من حقوق الله و حقوق عباده قد كتب ذلك و سطر عليهم

و قالوا: (يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا

وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

*** في الدَّارِ الْآخِرَةِ، أَي: يُنَاقِشُونَ عَلَى النَّقِيرِ وَالْقِطْمِيرِ، وَالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ،
وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عَذَّبَ؛

(و) بعد هذا الحساب السيئ

(وَمَا أُولَئِهِمْ جَهَنَّمُ^ط)

الجامعة لكل عذاب، من الجوع الشديد،

و العطش الوجيع، و النار الحامية و الزقوم و الزمهرير،

و الضريع و جميع ما ذكره الله من أصناف العذاب

(وَيَسَّالْتُهُمُ^ط)

أي: المقر والمسكن مسكنهم.

﴿١٩﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْذَرُكُمُ الْوَلَاةُ إِلَّا لَيْسَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ
 بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
 وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
 وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ
 عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ
 مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ
 يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾
 وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّا اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ
 مَنْ أَنْابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

﴿٢٨﴾

﴿١٩﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْذَرُكُمُ الْوَلَاةُ إِلَّا لَيْسَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ
 بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
 وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُوكُ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا

وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾

سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى: مفرقا بين أهل العلم و العمل و بين ضدهم:

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)

ففهم ذلك و عمل به.

*** لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْلَمُ مِنَ النَّاسِ أَنْ الَّذِي

{أُنْزِلَ إِلَيْكَ}

يَا مُحَمَّدٌ

{مِنْ رَبِّكَ}

هُوَ

{الْحَقُّ}

أَيُّ: الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَ لَا مَرِيَّةَ وَ لَا لَبْسَ فِيهِ وَ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ،

بَلْ هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا،

لَا يُضَادُّ شَيْءٌ مِنْهُ شَيْئًا آخَرَ،

فَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا حَقٌّ، وَ أَوَامِرُهُ وَ نَوَاهِيهِ عَدْلٌ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: 115]

أَيُّ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَ عَدْلًا فِي الطَّلَبِ،

فَلَا يَسْتَوِي مَنْ تَحَقَّقَ صِدْقَ مَا جِئَتْ بِهِ يَا مُحَمَّدُ،

(كَمَنْ هُوَ أَعْمَى^٤)

لا يعلم الحق و لا يعمل به فينبهما من الفرق كما بين السماء و الأرض،
فحقيق بالبعد أن يتذكر و يتفكر أي الفريقين أحسن حالا و خير مآلا
فيؤثر طريقها و يسلك خلف فريقها،
و لكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه و يضره.

*** لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَلَا يَفْهَمُهُ، وَلَا يَفْهَمُهُ مَا انْقَادَ لَهُ،
و لَا صَدَقَهُ وَلَا اتَّبَعَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ}
[الحشر: 20] وَ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى}
أَي: أَفَهَذَا كَهَذَا ؟ لَا اسْتِوَاءَ.

(إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَ الْأَنْبِيَاءِ)

أي: أولو العقول الرزينة(((الصحيحة))) و الآراء الكاملة، الذين هم لب العالم،
و صفوة بني آدم، فإن سألت عن وصفهم،
فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله:

(الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ)

الذي عهده إليهم و الذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة،
فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها، و النصح فيها

(و) من تمام الوفاء بها أنهم

(وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِثْقَ)

أي: العهد الذي عاهدوا عليه الله،

فدخل في ذلك جميع المواثيق و العهود و الأيمان و النذور،
التي يعقدها العباد.

فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم،
إلا بأدائها كاملة، و عدم نقضها و بخسها.

***وَلْيُسْوَ كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا عَاهَدَ أَحَدُهُمْ غَدَرٌ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ،
وَ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَ إِذَا اتُّمِّنَ خَانَ.

(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

و هذا عام في كل ما أمر الله بوصله، من: -

- 1-الإيمان به و برسوله، و محبته و محبة رسوله،
- 2-و الانقياد لعبادته وحده لا شريك له، و لطاعة رسوله.
- 3-و يصلون آباءهم و أمهاتهم ببرهم بالقول و الفعل و عدم عقوبتهم،
- 4-و يصلون الأقارب و الأرحام، بالإحسان إليهم قولاً و فعلاً
- 5-و يصلون ما بينهم و بين الأزواج و الأصحاب و المماليك،
بأداء حقهم كاملاً موفراً من الحقوق الدينية و الدنيوية.
- و السبب الذي يجعل العبد واصلاً ما أمر الله به أن يوصل،
خشية الله و خوف يوم الحساب،

و لهذا قال: (وَيَحْشَوْنَ رَبَّهُمْ)

***فِيمَا يَأْتُونَ وَ مَا يَذُرُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ، يُرَاقِبُونَ اللَّهَ فِي ذَلِكَ،
وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.
فَلِهَذَا أَمَرَهُمْ عَلَى السَّدَادِ وَ الْإِسْتِقَامَةِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ وَ سَكَنَاتِهِمْ
وَ جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ الْقَاصِرَةِ وَ الْمُتَعَدِّيَةِ.

(وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)

أي: يخافونه،

فيمنعهم خوفهم منه، و من القدوم عليه يوم الحساب، أن:-

1- يتجرأوا على معاصي الله،

2- أو يقصروا في شيء مما أمر الله به

خوفاً من العقاب

و رجاءاً للثواب.

(وَالَّذِينَ صَبَرُوا)

1- على المأامورات بالامتثال،

2- و عن المنهيات بالانكفاف عنها و البعد منها،

3- و على أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها.

و لكن بشرط أن يكون ذلك الصبر

(أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ)

لا لغير ذلك من المقاصد و الأغراض الفاسدة،
فإن هذا هو الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه،
طلباً لمرضاة ربه، و رجاءً للقرب منه، و الحظوة بثوابه،
و هو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان،
و أما الصبر المشترك الذي غايته التجلد و منتهاه الفخر،
فهذا يصدر من البر و الفاجر، و المؤمن و الكافر،
فليس هو الممدوح على الحقيقة.

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

بأركانها و شروطها و مكملاتها ظاهراً و باطناً،

(وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات و الكفارات و النفقات المستحبة
و أنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة،

(سِرًّا وَعَلَانِيَةً)

*** في السِّرِّ وَ الْجَهْرِ، لَمْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَالٌ مِنَ الْأَحْوَالِ،
في آناءِ اللَّيْلِ وَ أَطْرَافِ النَّهَارِ،

(وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ)

أي: من أساء إليهم بقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله،

بل قابلوهُ بالإحسان إليه.

فيعطون من حرمهم،

و يعفون عمن ظلمهم،

و يصلون من قطعهم،

و يحسنون إلى من أساء إليهم،

و إذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء؟!

***يَدْفَعُونَ الْقَبِيحَ بِالْحَسَنِ،

فَإِذَا آذَاهُمْ أَحَدٌ قَابَلُوهُ بِالْجَمِيلِ صَبْرًا وَ اخْتِمَالًا وَ صَفْحًا وَ عَفْوًا،

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ

حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}

[فُصِّلَتْ: 34، 35]

(أُولَئِكَ)

الذين وصفت صفاتهم الجليلة و مناقبهم الجميلة

(لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) فسرهما بقوله:

(جَنَّتْ عَدَنٌ يَدْخُلُونَهَا)

أي: إقامة لا يزولون عنها، و لا ييغون عنها حولا؛

لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم و السرور،

الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.

و من تمام نعيمهم و قرة أعينهم أنهم

(وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ)

من الذكور و الإناث

(وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ)

أي الزوج أو الزوجة و كذلك النظراء و الأشباه، و الأصحاب و الأحاب،

فإنهم من أزواجهم و ذرياتهم،

***يُجْمَعُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ أَحْبَابِهِمْ فِيهَا مِنَ الْآبَاءِ وَ الْأَهْلِينَ وَ الْأَبْنَاءِ،

مِمَّنْ هُوَ صَالِحٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِتَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ بِهِمْ،

حَتَّى إِنَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَةُ الْأَدْنَى إِلَى دَرَجَةِ الْأَعْلَى،

مِنْ غَيْرِ تَنْقِيسٍ لِذَلِكَ الْأَعْلَى عَنْ دَرَجَتِهِ، بَلِ امْتِنَانًا مِنَ اللَّهِ وَ إِحْسَانًا،

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا

أَلْحَقْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ} [الطُّور: 21]

(وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ)

يهنئونهم بالسلامة و كرامة الله لهم

و يقولون: (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

أي: حلت عليكم السلامة و التحية من الله و حصلت لكم،

و ذلك متضمن لزوال كل مكروه، و مستلزم لحصول كل محبوب.

(بِمَا صَبَرْتُمْ)

أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، و الجنان الغالية،

(فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

*الميسر: لهم العاقبة المحمودة في الآخرة.

○ فحقيق بمن نصح نفسه و كان لها عنده قيمة، أن يجاهدها،

لعلها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب، لعلها تحظى بهذه الدار،

التي هي :-

1- منية النفوس،

2- و سرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات و الأفراح،

فلمثلها فليعمل العاملون

و فيها فليتنافس المتنافسون.

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي

الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)

لما ذكر حال أهل الجنة ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به،

فقال عنهم: (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ)

أي: من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، و غلظ عليهم،

فلم يقابلوه بالانقياد و التسليم، بل قابلوه بالإعراض و النقص،

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

فلم يصلوا ما بينهم و بين ربهم بالإيمان و العمل الصالح،
و لا وصلوا الأرحام و لا أدوا الحقوق،

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

بل أفسدوا في الأرض بـ: -

1- الكفر و المعاصي،

2- و الصد عن سبيل الله

3- و ابتغائها عوجاً،

(أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ)

أي: البعد و الذم من الله و ملائكته و عباده المؤمنين،

(وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

و هي: الجحيم بما فيها من العذاب الأليم.

*** كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: -

إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَ إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَ إِذَا أُؤْتِيَ خَانٌ"

وَ فِي رِوَايَةٍ: "وَ إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَ إِذَا خَاصَمَ فَجَرَ".

اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٣٦﴾

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ)

هو وحده يوسع الرزق و يبسطه على من يشاء

(وَيَقْدِرُ^٤)

و يقدره و يضيقه على من يشاء،

*** لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ.

(وَفَرَحًا)

أي: الكفار

(بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

○ فرحا أوجب لهم أن يطمئنوا بها، و يغفلوا عن الآخرة

و ذلك لنقصان عقولهم،

و فَرَحَ هَوَآءٍ الْكُفَّارِ بِمَا أُوتُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ وَ إِمَهَالًا

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ

بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [الْمُؤْمِنُونَ: 55، 56] .

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

أي: شيء حقير يتمتع به قليلا و يفارق أهله و أصحابه و يعقبهم ويلا طويلا.

*** كَمَا قَالَ: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا}

[النِّسَاء: 77]

و قَالَ {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الْأَعْلَى: 16، 17] .

***صحيح مسلم

(2858) عن المِثْوَرِدِ، أَخِي بَنِي فَهْرٍ، يَقُولُ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«وَاللَّهُ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ -
وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟» ()

***صحيح مسلم

(2957) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ،

دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتْهُ،

فَمَرَّ بِجَدِي أَسْكَ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ،

ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بِدَرَاهِمُ؟»

فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَ مَا نَصْنَعُ بِهِ؟

قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟»

قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسْكٌ،

فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟

فَقَالَ: «فَوَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ» ()

(اليم) اليم هو البحر (بم يرجع) ضبطوا يرجع بالتاء وبالياء والأول أشهر ومن رواه بالياء أعاد الضمير إلى أحدهم وبالتاء أعاده على الإصبع وهو الأظهر ومعناه لا يعلق بها كثير شيء من الماء ومعنى الحديث ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر [كنفته) وفي بعض النسخ كنفته معنى الأول جانبه والثاني جانبيه (جدي أسك) أي صغير الأذنين]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ

مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ

أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله يتعنتون على رسول الله،
و يقترحون و يقولون:

(لَوْلَا)

***هلا

(أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ)

و بزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا

***كَمَا قَالُوا: {فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} [الأنبياء: 5]

***مسند أحمد مخرجا

2166 - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ:-

ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصِّفَا ذَهَبًا، وَ نُؤْمِنُ بِكَ،

قَالَ: «وَو تَفْعَلُونَ؟»

قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَدَعَا، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فَقَالَ: " إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ،

و يَقُولُ: إِنَّ شَيْئًا أَصْبَحَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا،

فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْنَاهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ،

وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَ الرَّحْمَةِ " قَالَ: «بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَ الرَّحْمَةِ»

*** وَ لِهَذَا قَالَ لِرَسُولِهِ: {قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ} أَي: هُوَ الْمُضِلُّ وَ الْهَادِي، سَوَاءٌ بَعَثَ الرَّسُولَ بَايَةً عَلَى وَفْقٍ مَا افْتَرَحُوا، أَوْ لَمْ يُجِبْهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ؛

فَإِنَّ الْهِدَايَةَ وَ الْإِضْلَالَ لَيْسَ مَنُوطًا بِذَلِكَ وَ لَا عَدَمِهِ،

كَمَا قَالَ: {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالتَّذْذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يُونُسَ: 101]

وَ قَالَ {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى

يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يُونُسَ: 96، 97]

وَ قَالَ {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ

قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}

[الْأَنْعَام: 111]

○ فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ:—

{قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ}

أي: طلب رضوانه، فليست الهداية و الضلال بأيديهم

حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات، و مع ذلك فهم كاذبون،

{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا

كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}

و لا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها و يقترحونها،

بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفى ذلك و حصل المقصود،
و كان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها،
فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب.
ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ^ط)

أي: يزول قلقها و اضطرابها، و تحضرها أفراحها و لذاتها.

(أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

أي: حقيق بها و حريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره،
فإنه لا شيء ألد للقلوب و لا أشهى و لا أحلى من محبة خالقها،
و الأنس به و معرفته،

○ و على قدر معرفتها بالله و محبتها له، يكون ذكرها له،

هذا على القول بأن ذكر الله، ذكر العبد لربه، — من: —

تسييح و تهليل و تكيير و غير ذلك.

○ و قيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين،

فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: —

أنها حين تعرف معاني القرآن و أحكامه تطمئن لها،

فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة و البراهين،

و بذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين و العلم،

و ذلك في كتاب الله، مضمون على أتم الوجوه و أكملها،
و أما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها،
بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة و تضاد الأحكام.

(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)

و هذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله و تدبره،
و تدبر غيره من أنواع العلوم، فإنه يجد بينها و بينه فرقا عظيما.
ثم قال تعالى:

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي
 أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَلْتَأَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ
 هُورَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ
 قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّ بِهٍ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِنِسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ
 يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ
 قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا نِسْمَةً زِيَّةً مِّن
 قَبْلِكَ فَآمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ
 نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظَاهِرُونَ
 مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾
 لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ ﴿٣٥﴾
 (الَّذِينَ ءَامَنُوا)

أي: آمنوا بقلوبهم بالله و ملائكته، و كتبه و رسله و اليوم الآخر،

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

و صدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة،

أعمال القلوب —:—

محبة الله و خشيته و رجائه،

و أعمال الجوارح كـ:

الصلاة و نحوها.

(طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَثَابٍ)

أي: لهم حالة طيبة و مرجع حسن.

و ذلك بما ينالون من رضوان الله و كرامته في الدنيا و الآخرة،

و أن لهم كمال الراحة و تمام الطمأنينة،

○ و من جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة،

التي يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها،

كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

*** سنن الترمذي ت بشار

2541 - عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
وَ ذَكَرَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى،

قَالَ: يَسِيرُ الرَّاکِبُ فِي ظِلِّ الْفَتَنِ مِنْهَا مِائَةَ سَنَةٍ،

أَوْ يَسْتَضِلُّ بِظِلِّهَا مِائَةَ رَاكِبٍ،

شَكَّ يَحْيَى، فِيهَا فِرَاشُ الذَّهَبِ كَأَنَّ ثَمَرَهَا الْقِلَاقُ.

*** صحيح البخاري

6552 - عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّاکِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَفْطَعُهَا»

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ

يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ)

إلى قومك تدعوهم إلى الهدى

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ)

أرسلنا فيهم رسلنا، فلست بدع من الرسل حتى يستكروا رسالتك،

و لست تقول من تلقاء نفسك،

(لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

بل تتلو عليهم آيات الله التي أوحاها الله إليك التي تطهر القلوب و تزكي

النفوس.

*** وَ كَمَا أَوْعَدْنَا بَآسَنًا وَ نِقْمَتَنَا بِأَوَّلِنِكَ،

فَلْيَحْذَرْ هَؤُلَاءِ مِنْ حُلُولِ النَّقْمِ بِهِمْ،

فَإِنَّ تَكْذِيبَهُمْ لَكَ أَشَدُّ مِنْ تَكْذِيبِ غَيْرِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ،

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ

فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النحل: 63]

وَ قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى

أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ}

[الْأَنْعَامُ: 34]

أَيُّ: كَيْفَ نَصَرْنَاهُمْ، وَ جَعَلْنَا الْعَاقِبَةَ لَهُمْ وَ لِاتِّبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ.
(وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ^ج)

و الحال أن قومك يكفرون بالرحمن،

فلم يقابلوا رحمته و إحسانه - التي أعظمها أن:-

1- أرسلناك إليهم رسولا

2- و أنزلنا عليك كتابا

- بالقبول و الشكر بل قابلوه

بالإنكار و الـرد،

أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم،

*** هَذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي بَعَثْنَاكَ فِيهِمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ،

لَا يُقِرُّونَ بِهِ؛ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْنِفُونَ مِنْ وَصْفِ اللَّهِ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؛

و لِهَذَا أَنْفَوْا يَوْمَ الْحَدِيثِ أَن يَكْتُبُوا "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"

و قَالُوا: مَا نَذَرِي مَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. قَالَ فَتَادَةٌ،

و الْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ

و قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى} [الْإِسْرَاءُ: 110]

و فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

"إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ.

(قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

و هذا متضمن للتوحيد الألوهية و توحيد الربوبية .
فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني ،

و هو إلهي الذي (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ)
في جميع أموري

(وإِلَيْهِ مَتَابِ)

أي: أرجع في جميع عباداتي و في حاجاتي .

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَل لَّلهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ^ق
أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا ^ط
تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ
إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ^ع

يقول تعالى مبينا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة:

(وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا)

من الكتب الإلهية

(سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ)

عن أماكنها

(أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ)

جنانا و أنهارا

(أَوْكَلِمَ بِهِ الْمَوْتِ)

لكان هذا القرآن.

(بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)

فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته،

فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟

فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟.

(أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

*الميسر: أفلم يعلم المؤمنون أن الله لو يشاء لآمن أهل الأرض

كلهم من غير معجزة؟

○ فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعا و لكنه لا يشاء ذلك،

بل يهدي من يشاء، و يضل من يشاء

***صحيح البخاري

4981 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ،

وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ،

فَارْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ()

(أعطي ما مثله آمن عليه البشر) أجري على يديه من المعجزات الشيء الذي يقتضي إيمان من شاهدها بصدق دعواه لأنها من خوارق العادات حسب زمانه ومكانه.

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ)

*الميسر: و لا يزال الكفار تنزل بهم مصيبة بسبب كفرهم
كالقتل و الأسر في غزوات المسلمين،

(أَوْ تَحُلُّ قَرْيَةً مِّن دَارِهِم)

*الميسر: أو تنزل تلك المصيبة قريياً من دارهم،

○ على كفرهم، لا يعتبرون و لا يتعظون،

و الله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم أو تحل قريبا منها،
و هم مصرون على كفرهم

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ} [الْأَحْقَافِ: 27]

وَ قَالَ {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}
[الأنبياء: 44] .

(حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ^٤)

الذي وعدهم به، لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه،

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

(أوتيته) المعجزة التي أعطيتها. (وحيا) قرآنا موحى

به من الله تعالى يبقى إعجازه على مر الأزمان ولذلك يكثر المؤمنون به ويوم القيامة يكون
أتباعه العاملون بشريعته المنزلة أكثر من الأتباع العاملين بالشرع الحق لكل نبي]

و هذا تهديد لهم و تخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم و عنادهم و ظلمهم.

***{فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [إِبْرَاهِيمَ: 47] .

وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى لرسوله - مثبتا له و مسلما -

(وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ)

فلست أول رسول كذب و أوذي

(فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

برسلهم أي: أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين.

(ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ)

بأنواع العذاب

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى

الْمَصِيرِ} [الحج: 48]

***صحيح البخاري

4686 - عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»

قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: 102]

(فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

كان عقابا شديدا و عذابا أليما،
فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك و استهزؤوا بك بامهالنا،
فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم،
فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك.

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۖ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ
فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ
وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ
وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى: (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

بالجزاء العاجل و الآجل، بالعدل و القسط،
و هو الله تبارك و تعالى كمن ليس كذلك؟

و لهذا قال: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ)

و هو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له و لا ند و لا نظير

(قُلْ) لهم إن كانوا صادقين:

(سَمَوْهُمْ^ع)

لتعلم حالهم

(أَمْ تَتَّبِعُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ)

*الميسر: أم تخبرون الله بشركاء في أرضه لا يعلمهم،

○ فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة و هو لا يعلم له شريكا،

علم بذلك بطلان دعوى الشريك له،

و أنكم بمنزلة الذي يُعَلِّمُ الله أن له شريكا و هو لا يعلمه،

و هذا أبطل ما يكون؛

و لهذا قال: (أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ^ط)

*الميسر: أم تسمونهم شركاء بظاهر من اللفظ من غير أن يكون لهم حقيقة.

أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى أنه بظاهر أقوالكم.

و أما في الحقيقة، فلا إله إلا الله،

و ليس أحد من الخلق يستحق شيئا من العبادة،

و لكن (بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ)

*الميسر: بل حسن الشيطان للكفار قولهم الباطل

○ الذي مكروه و هو كفرهم و شركهم، و تكذيبهم لآيات الله

*** مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضلال و الدعوة إليه آثَاءَ اللَّيْلِ وَ أَطْرَافِ النَّهَارِ

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} [فُصِّلَتْ: 25] .

(وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ)

أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله و إلى دار كرامته،

(وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

*الميسر: و مَنْ لَمْ يَوْفِقْهُ اللَّهُ لِهَدَايَتِهِ فَلَيْسَ لَهُ أَحَدٌ يَهْدِيهِ،
و يوفقه إلى الحق و الرشاد.
○ لأنه ليس لأحد من الأمر شيء.

***وَ لِهَذَا قَالَ: {وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}

كَمَا قَالَ {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} [الْمَائِدَةِ: 41]
وَ قَالَ {إِنْ تَحَرَّضْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [النَّحْلِ: 37] .

(لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ)

من عذاب الدنيا لشدته و دوامه

(وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

يقيهم من عذاب الله، فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

﴿٣٥﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ
 عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ
 بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنْ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ
 أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْ حُكُمًا عَرَبِيًّا وَلِيُنَبِّئَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا
 جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا
 لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِطَايِفَةٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
 يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي
 نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ
 نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَخْكُمُ لَا مَعْصِيَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾
 وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ
 وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾

﴿٣٥﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا
 تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾
 يقول تعالى: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ)

الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، و لم يقصروا فيما أمرهم به، أي:
صفتها و حقيقتها

(تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^ط)

أنهار العسل، و أنهار الخمر، و أنهار اللبن، و أنهار الماء التي تجري في غير
أخدود،

فتسقى تلك البساتين و الأشجار فتحمل من جميع أنواع الثمار.

*** صحيح البخاري

748 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ:-

خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَصَلَّى، قَالُوا:-

يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ،

ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعَّكْتَ،

قَالَ: «إِنِّي أُرِيتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنُقُودًا،

و لَوْ أَخَذْتُهَ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا» ()

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ

وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ

مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا

مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [محمد: 15] .

(أَكُلْهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا^ع)

(تكعكت) تأخرت إلى الوراء

دائم أيضا،

***وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ}

[الْوَاقِعَةُ: 32، 33]

وَقَالَ {وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا} [الْإِنْسَانِ: 14] .

***وَكَذَلِكَ ظِلُّهَا لَا يَزُولُ وَلَا يَقْلُصُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [النِّسَاء: 57]

***وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّكَّابُ الْمُجِدُّ الْجَوَادَ الْمُضْمَرَّ السَّرِيعَ فِي ظِلِّهَا
مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا،

ثُمَّ قَرَأَ: {وَوَظِلٍّ مَمْدُودٍ} [الْوَاقِعَةُ: 30] .

(تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا)

أي: عاقبتهم و مآلهم التي إليها يصيرون،

(وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

فكم بين الفريقين من الفرق الممين!!؟

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ

الْفَائِزُونَ} [الْحَشَرِ: 20].

وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ

قُلْ إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ ۖ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى: (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ)

أي: منّا عليهم به و بمعرفته،

(يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

فيؤمنون به و يصدقونه، و يفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض،

و تصديق بعضها بعضا و هذه حال من آمن من أهل الكتابين،

***مِنَ الْقُرْآنِ لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى صِدْقِهِ وَ الْبَشَارَةِ بِهِ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة: 121]

و قَالَ تَعَالَى: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى

عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا

[الإسراء: 107، 108]

أَي: إِنْ كَانَ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ بِهِ فِي كُتُبِنَا مِنْ إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَحَقًّا وَ صِدْقًا

مَفْعُولًا لَا مَحَالَةَ، وَ كَانِنَا، فَسُبْحَانَهُ مَا أَصْدَقَ وَعْدَهُ،

فَلَهُ الْحَمْدُ وَحْدَهُ {وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: 109]

(وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ)

أي: و من طوائف الكفار المنحرفين عن الحق،

من ينكر بعض هذا القرآن و لا يصدقه.

(فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)

إنما أنت يا محمد منذر تدعوا إلى الله،

***الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى، مَنْ يُنْكِرْ بَعْضَهُ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ.

و هَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آلِ عِمْرَانَ: 199] .

(قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ؕ)

أي: بإخلاص الدين لله وحده،

(إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

أي: مرجعي الذي أرجع به إليه

فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه و القيام بما أمرت به.

وَكَذَٰلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَٰئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

(وَكَذَٰلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا)

أي: و لقد أنزلنا هذا القرآن و الكتاب حكما، عربيا أي:

محكما متقنا، بأوضح الألسنة و أفصح اللغات،

لئلا يقع فيه شك و اشتباه، و ليجب أن يتبع وحده،
 و لا يداهن فيه، و لا يتبع ما يضاده و يناقضه من أهواء الذين لا يعلمون.
 و لهذا توعده رسوله - مع أنه معصوم- ليمتن عليه بعصمته
 و لتكون أمته أسوته في الأحكام

فقال: **(وَلِيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ)**

البين الذي ينهك عن اتباع أهوائهم،

(مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ)

يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب،

(وَلَا وَاقٍ)

يقيك من الأمر المكروه.

*** وَ هَذَا وَعِيدٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَّبِعُوا سُبُلَ أَهْلِ الضَّلَالَةِ بَعْدَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ
 مِنْ سُلُوكِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَ الْمَحَجَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ،
 عَلَى مَنْ جَاءَ بِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَ السَّلَامِ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۖ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا

بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۝٣٩

وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩

أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك،

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً^٤)

فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج و ذرية، كما كان لإخوانك المرسلين،
فلأي شيء يقدحون فيك بذلك و هم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك؛
إلا لأجل أغراضهم الفاسدة و أهوائهم؟

و إن طلبوا منك آية اقترحوها فليس لك من الأمر شيء.

*** وَ كَمَا أَرْسَلْنَاكَ، يَا مُحَمَّدٌ، رَسُولًا بَشَرِيًّا كَذَلِكَ قَدْ بَعَثْنَا الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ
بَشَرًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَ يَأْتُونَ الزَّوْجَاتِ،
وَ يُؤَلِّدُ لَهُمْ، وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَ ذُرِّيَّةً،
وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَشْرَفِ الرُّسُلِ وَ خَاتَمِهِمْ:
{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ} [الْكَهْف: 110] .

*** صحيح البخاري

5063 - عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ:

جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ
فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَهُمْ تَقَالُوهَا،

فَقَالُوا: وَ أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟

قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَ مَا تَأَخَّرَ،

قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصْلِي اللَّيْلَ أَبَدًا،

وَ قَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَ لَا أَفْطِرُ،

وَ قَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا،

فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ،

فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَ كَذَا،

أَمَّا وَ اللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَ اتَّقَاكُمْ لَهُ،
لَكِنِّي أَصُومُ وَ أَفْطِرُ، وَ أَصَلِّي وَ أَرْقُدُ، وَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ،
فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

و الله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره و قضاه،

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

لا يتقدم عليه و لا يتأخر عنه،

فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجبا

لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر مع أنه تعالى فعال لما يريد.

***لِكُلِّ مُدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ كِتَابٌ مَكْتُوبٌ بِهَا، وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ،

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرٌ} [الْحَجَّ: 70]

(يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ)

من الأقدار

(وَيُثَبِّتُ^ط)

*الميسر: و يبقى ما يشاء منها لحكمة يعلمها،

○ ما يشاء منها،

و هذا المحو و التغيير في غير ما سبق به علمه و كتبه قلمه

فإن هذا لا يقع فيه تبديل و لا تغيير

لأن ذلك محال على الله، أن يقع في علمه نقص أو خلل
***يُدَبَّرُ أَمْرَ السَّنَةِ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ، إِلَّا الشَّقَاءَ وَ السَّعَادَةَ، وَ الْحَيَاةَ وَ الْمَوْتَ.

وَ فِي رِوَايَةٍ: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ}
قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْحَيَاةَ وَ الْمَوْتَ، وَ الشَّقَاءَ وَ السَّعَادَةَ
فَإِنَّهُمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُمَا.

وَ قَالَ مُجَاهِدٌ: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ}
إِلَّا الْحَيَاةَ وَ الْمَوْتَ، وَ الشَّقَاءَ وَ السَّعَادَةَ، فَإِنَّهُمَا لَا يَتَغَيَّرَانِ.

○ و لهذا قال: (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها،
و هي فروع له و شعب.

فالتغيير و التبديل يقع في الفروع و الشعب،
كأعمال اليوم و الليلة التي تكتبها الملائكة،
و يجعل الله لشبوتها أسبابا و لمحوها أسبابا،

لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ،
كما جعل الله البر و الصلة و الإحسان من أسباب طول العمر و سعة الرزق،
و كما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق و العمر
و كما جعل أسباب النجاة من المهالك و المعاطب سببا للسلامة،
و جعل التعرض لذلك سببا للعطب،

فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته و إرادته،
و ما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه و كتبه في اللوح المحفوظ.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۚ
وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:

لا تعجل عليهم بإصابتهم ما يوعدون به من العذاب،
فهم إن استمروا على طغيانهم و كفرهم فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به،

(وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ)
إياه في الدنيا فتقر بذلك عينك،

(أَوْ تَوَقَّعَنَّكَ)

قبل إصابتهم فليس ذلك شغلا لك

(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ)
و التبیین للخلق.

(وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)

فنحاسب الخلق على ما قاموا به، مما عليهم، و ضيعوه، و نثيبهم أو نعاقبهم.

ثم قال متوعدا للمكذبين

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا^٤)

*الميسر: و ذلك بفتح المسلمين بلاد المشركين

و إلحاقها ببلاد المسلمين؟

○ قيل بإهلاك المكذبين و استئصال الظالمين،

و قيل: بفتح بلدان المشركين، و نقصهم في أموالهم و أبدانهم،

و قيل غير ذلك من الأقوال.

و الظاهر - والله أعلم- أن المراد بذلك أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله

يفتحها و يجتاحها،

و يحل القوارع بأطرافها، تنبيها لهم قبل أن يجتاحهم النقص،

و يوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد،

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ} [الْأَحْقَافِ: 27]

و لهذا قال: (وَاللَّهُ يُحْكِمُ)

و يدخل في هذا حكمه الشرعي و القدري و الجزائي.

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة و الإتقان،

لا خلل فيها و لا نقص، بل هي مبنية على القسط و العدل و الحمد،

(لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ^٥)

فلا يتعقبها أحد و لا سبيل إلى القدح فيها،

بخلاف حكم غيره فإنه قد يوافق الصواب و قد لا يوافقه،

^٤ (وَهُوَ سَكْرِيْعُ الْحِسَابِ)

أي: فلا يستعجلوا بالعذاب فإن كل ما هو آت، فهو قريب.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ

وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى: (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

برسلهم و بالحق الذي جاءت به الرسل،

فلم يغن عنهم مكرهم و لم يصنعوا شيئاً فإنهم يحاربون الله و يبارزونه،

(فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا)

أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه، و تحت قضائه و قدره،

فإذا كانوا يمكرون بدينه فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة و الندم،

فإن الله (يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ)

أي: همومها و إراداتها و أعمالها الظاهرة و الباطنة.

و المكر لا بد أن يكون من كسبها فلا يخفى على الله مكرهم

فيمتنع أن يمكروا مكرًا يضر الحق و أهله و يفيدهم شيئاً

وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ)

أي: ألهم أو لرسله؟

و من المعلوم أن العقابة للمتقين لا للكفر و أعماله.

كيف يمكن للأرض أن تتناقص كما قال تعالى:

(ننقصها من أطرافها)

الرابط

إن الذي ينظر للأرض من الخارج يراها كرة مستديرة و لا يكاد يحس بأي فرق بين أقطارها. و لكن القياسات الحديثة بينت أن هنالك نقصاناً في قطر الأرض عند القطبين. فقطر الأرض عند خط الاستواء يزيد على قطرها عند القطبين بحدود (43) كيلو متراً تقريباً، فما هو سرّ هذا التناقص،

و هل هو ثابت أم يتغير مع الزمن ولماذا؟

هذه التساؤلات و غيرها كانت الشغل الشاغل لعلماء الأرض على مدى القرن العشرين. فالأرض تدور حول نفسها بسرعة كبيرة تتجاوز الـ (1600) كيلو متراً في الساعة! و تدور حول الشمس بسرعة هائلة تتجاوز المئة ألف كيلو متراً في الساعة! هذا الدوران المستمر على مَرَّ آلاف الملايين من السنين يؤدي إلى انكماش الأرض و تناقص قطرها عند القطبين بسبب القوة النابذة الهائلة المتولدة عند خط الاستواء. لذلك نجد شكل الأرض بيضاوياً و ليس تام الاستدارة.

إن التناقص في قطر الأرض عند طرفيها (القطبين) يتم بمعدل مليمترات كل سنة! هذه المسافة الدقيقة لا يمكن قياسها مباشرة.

و لكن تم استنتاجها من خلال الحسابات والأرقام.

فهل في كتاب الله حديث عن نقصان الأرض من أطرافها باستمرار؟ يقول عز وجل في محكم الذكر مخاطباً هؤلاء المشككين بصدق القرآن و يبين لهم حقيقة علمية هم الذين كشفوها:

(أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) [الأنبياء: 44].

و تأمل معي كلمة (ننقصها) التي تعطي معنى الاستمرار.

فالأرض كانت تنقص من أطرافها و هي مستمرة في التناقص.

○ و حدد القرآن هذا التناقص عند أطراف الأرض عند القطبين المتجمدين الشمالي و الجنوبي. هنالك كثير من التناقص في الأرض،

فالفكرة الأرضية تنفت ملايين الأطنان من فوهات البراكين،

و يتسرب جزء منها إلى خارج الغلاف الجوي و هذا نقصان في وزن الأرض باستمرار.

○ هنالك نقصان آخر في قمم الجبال التي تنقص باستمرار بفعل العوامل الجوية كالرياح.

○ كذلك يمارس البحر دوره في الحث لشواطئه فتتآكل هذه الشواطئ باستمرار و تتناقص.

و هذا يعد نقصاناً للأرض من أطراف اليابسة.

○ هنالك نقصان آخر في سرعة دوران الأرض.

فعند بداية خلق الأرض كانت أكبر من حجمها الحالي بمئتي ضعف تقريباً،

و كانت أسرع بعدة مرات.

○ و هنالك سلسلة من التناقص الأرضية من حيث المادة و الطاقة و المجال المغنطيسي

الأرضي و غير ذلك.

إذن هذه الآية شاملة لجميع أنواع النقصان الأرضي،

و هذا يدل على أن المصطلحات العلمية القرآنية شاملة و تراعي تطور العلم فكلما جدّ جديد

في كشوفات العلم اتضحت أمامنا تفسيرات جديدة للآية لم نكن نعلمها من قبل.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام وهي مكة- بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّكَتَدُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾
(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا)

أي: يكذبونك و يكذبون ما أرسلت به

(قُلْ) لهم - إن طلبوا على ذلك شهيدا:

(كَفَى بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)

و شهادته بقوله و فعله و إقراره،

أما قوله:-

فبما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يثبت به رسالته.

و أما فعله:-

فلأن الله تعالى أيد رسوله و نصره نصرا خارجا عن قدرته و قدرة أصحابه
و أتباعه

و هذا شهادة منه له بالفعل و التأييد.

و أما إقراره:-

فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله،

و أنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله و كرامته،

و من لم يتبعه فله النار و السخط و حل له ماله و دمه و الله يقره على ذلك،
فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة.

(وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)

و هذا شامل لكل علماء أهل الكتابين،

فإنهم يشهدون للرسول من آمن و اتبع الحق،

صرح بتلك الشهادة التي عليه،

و من كتم ذلك فأخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره

و لو لم يكن عنده شهادة لرد استشهاده بالبرهان،

فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.

و إنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن،

و كل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم،

بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب و غيرهم،

فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم و معرفتهم و الله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد، و الحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام، و هي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى

صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ

لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ

وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

(الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق،

ليخرج الناس من ظلمات الجهل و الكفر و الأخلاق السيئة و أنواع المعاصي
إلى نور العلم و الإيمان و الأخلاق الحسنة،

و قوله: **(يَاذِنِ رَبِّهِمْ)**

أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بإرادة من الله و معونة،
ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم.

ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب

فقال: **(إِلَى صِرَاطٍ)**

أي: الموصول إليه و إلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق و العمل به،

و في ذكر **(الْعَزِيزِ)**

بعد ذكر الصراط الموصول إليه إشارة إلى أن من سلكه فهو

عزيز بعز الله قوي

و لو لم يكن له أنصار إلا الله،

محمود في أموره، حَسَنُ العاقبة.

و ليدل ذلك على أن صراط الله من أكبر الأدلة على ما لله من صفات

الكمال، و نعوت الجلال، و أن الذي نصبه لعباده، عزيز السلطان،

(الْحَمِيدِ)

حميد في أقواله و أفعاله و أحكامه،

و أنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم،
و أنه كما أن له ملك السماوات و الأرض خلقا و رزقا و تدبيراً،
فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه،
و لا يليق به أن يتركهم سدى

(اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

فلما بين الدليل و البرهان توعدهم من لم ينقد لذلك،

فقال: (وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

لا يقدر قدره، و لا يوصف أمره،

ثم وصفهم بأنهم (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

فرضوا بها و اطمأنوا، و غفلوا عن الدار الآخرة.

(وَيَصُدُّونَ)

الناس

(عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

التي نصبها لعباده و بينها في كتبه و على السنة رسله

فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة و المحاربة،

(وَيَبْغُونَهَا)

أي: سبيل الله

(عَوَجًا^ع)

أي: يحرصون على تهجينها و تقبيحها، للتنفير عنها،
و لكن يأبى الله إلا أن يتم نوره و لو كره الكافرون.

(أُولَئِكَ)

الذين ذكر وصفهم

(فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

لأنهم ضلوا و أضلوا، و شاقوا الله و رسوله و حاربوهما،
فأي ضلال أبعد من هذا !!؟

و أما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء يؤمنون بالله و آياته
و يستحبون الآخرة على الدنيا و يدعون إلى سبيل الله
و يحسنونها مهما أمكنهم، و يبينون استقامتها.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ

وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ)

و هذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولا

(إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)

ما يحتاجون إليه، و يتمكنون من تعلم ما أتى به،

بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم،
فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه،
فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه و قامت عليهم حجة الله

(فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ)

ممن لم ينقد للهدى،

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^٤)

ممن اختصه برحمته.

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الذي - من عزته - أنه انفرد بالهداية و الإضلال،

و تقلب القلوب إلى ما شاء،

و من حكمته أنه لا يضع هدايته و لا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

و يستدل بهذه الآية الكريمة على :-

أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه و كلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله

لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها

إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، و ذلك إذا تمرنوا على العربية،

و نشأ عليها صغيروهم و صارت طبيعة لهم فحينئذ قد اكتفوا المؤنة،

و صلحوا لأن يتلقوا عن الله و عن رسوله ابتداء كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم.

*** وَ قَدْ كَانَتْ هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ:
أَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي أُمَّةٍ إِلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّهِ، فَاصْتَخَصَ كُلَّ نَبِيٍّ بِإِبْلَاجِ رِسَالَتِهِ إِلَى أُمَّتِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ، .
وَ اخْتَصَّ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَسُولَ اللَّهِ بِعُمُومِ الرِّسَالَةِ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ،
*** كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
"أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي:
نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ،
وَ جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا،
وَ أُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَ لَمْ تَحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي،
وَ أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ،
وَ كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَ بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً" () .
*** وَ قَالَ تَعَالَى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}
[الأعراف: 158] .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا

إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥٠﴾

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا)

يخبر تعالى: أنه أرسل موسى بآياته العظيمة

الدالة على صدق ما جاء به و صحته،

و أمره بما أمر الله به رسوله محمدا ﷺ بل و بما أمر به جميع الرسل قومهم

(أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

أي: ظلمات الجهل و الكفر و فروعه، إلى نور العلم و الإيمان و توابعه.

(وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ)

أي: بنعمه عليهم و إحسانه إليهم، و بأيامه في الأمم المكذبين،

و وقائعه بالكافرين، ليذكروا نعمه و ليحذروا عقابه،

***بِأَيَادِيهِ وَ نَعْمِهِ عَلَيْهِمْ، فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ.

وَ قَهْرِهِ وَ ظُلْمِهِ وَ غَشْمِهِ،

وَ إِنْجَائِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ عَذْوِهِمْ،

وَ فَلَقِهِ لَهُمُ الْبَحْرَ،

وَ تَظْلِيلِهِ إِيَّاهُمْ بِالْغَمَامِ،

وَ إِنْزَالِهِ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ

(إِنَّكَ فِي ذَلِكَ)

أي: في أيام الله على العباد

(لَا يَنْتِ لِكُلِّ صَبَّارٍ)

أي: صبار في الضراء و العسر و الضيق،

(شكوير)

على السراء و النعمة.

*** صحيح مسلم

(2999) عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ،
وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ،
إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ،
وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ
 فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِحُونَ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
 نِسَاءَكُمْ^٦ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ وَلَيْنَ
 شَكَرْتُمْ لَا زَيْدٌ لَّكُمْ^٧ وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا
 أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ^٩ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ^{١٠}
 جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
 بِهِمْ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ^{١١} مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
 مُّسَمًّى^{١٢} قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
 فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ
 فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِحُونَ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
 نِسَاءَكُمْ^٦ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ وَلَيْنَ
 شَكَرْتُمْ لَا زَيْدٌ لَّكُمْ^٧ وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ)

فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته و عظيم إحسانه،
و تمام عدله و حكمته، و لهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه،
فذكرهم نعم الله فقال:

(أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

أي: بقلوبكم و ألسنتكم.

(إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ)

أي: يولونكم

(سُوءَ الْعَذَابِ)

أي: أشده و فسر ذلك بقوله:

(وَيَذَّبُونُ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ)

أي: يبقونهن فلا يقتلونهن،

(وَفِي ذَٰلِكُمْ)

الإنجاء

(بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

أي: نعمة عظيمة،

أو و في ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فرعون و ملئه ابتلاء من الله عظيم لكم، لينظر هل تصبرون أم لا؟

***وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هَذَا وَ هَذَا، وَ اللَّهُ أَعْلَمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف: 168] .

و قال لهم حاثا على شكر نعم الله:

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ)

أي: أعلم و وعد،

***وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى:

وَ إِذْ أَقْسَمَ رَبُّكُمْ وَ آلَى بِعِزَّتِهِ وَ جَلَالِهِ وَ كِبَرِيَّائِهِ كَمَا قَالَ:

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [الأعراف: 167] .

(لَيْنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ^ط)

من نعمي

(وَلَيْنِ كَفَرْتُمْ)

***كَفَرْتُمْ النِّعَمَ وَ سَرَرْتُمُوهَا وَ جَحَدْتُمُوهَا

(إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)

و من ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم.

و الشكر: -

1- هو اعتراف القلب بنعم الله

2-و الشاء على الله بها

3-و صرفها في مرضاة الله تعالى. و كفر النعمة ضد ذلك.

(وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

فلن تضروا الله شيئاً

(فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ)

فالطاعات لا تزيد في ملكه و المعاصي لا تنقصه،

و هو كامل الغنى

(حَمِيدٌ)

في ذاته و أسمائه و صفاته و أفعاله،

ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد و كمال،

و لا من الأسماء إلا كل اسم حسن، و لا من الأفعال إلا كل فعل جميل.

***هُوَ غَنِيٌّ عَنْ شُكْرِ عِبَادِهِ، وَ هُوَ الْحَمِيدُ الْمَحْمُودُ، وَإِنْ كَفَرَهُ مَنْ كَفَرَهُ،

كَمَا قَالَ: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ

تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزُّمَرِ: 7]

وَ قَالَ تَعَالَى: {فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [التَّغَابُنِ: 6]

***صحيح مسلم

(2577) عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

«.... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَ آخِرُكُمْ وَ إِنْسَكُمْ وَ جَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ

قَلْبٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا،

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ
فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ،
مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ

الَّذِينَ تَكْفُرُونَ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ
وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ
رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصْطَدُونَا
عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخوفا عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل،
فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس و سمعوه فقال:

(الَّذِينَ تَكْفُرُونَ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ)

و قد ذكر الله قصصهم في كتابه و بسطها،

(وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ)

من كثرتهم و كون أخبارهم اندرست.

فهؤلاء كلهم (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

أي: بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به،

فلم يرسل الله رسولا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر،
فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم ينقادوا لها بل استكبروا عنها،

(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ)

أي: لم يؤمنوا بما جاءوا به و لم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ)

(وَقَالُوا) صريحا لرسولهم:

(إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

أي: موقع في الريبة، و قد كذبوا في ذلك و ظلموا.

و لهذا **(قَالَتْ)** لهم

(رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ)

أي: فإنه أظهر الأشياء و أجلاها، فمن شك في الله

(فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^ط)

الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده،

لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتى الأمور المحسوسة

و لهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه و لا يصلح الريب فيه

(يَدْعُوكُمْ)

إلى منافعكم و مصالحكم

﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

أي: ليشيكم على الاستجابة لدعوته بالشواب العاجل و الآجل، فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم.

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا

إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} الآية [هُود: 3]

***وَهُذَا يَحْتَمِلُ شَيْئَيْنِ:-

1- أَيْ وَجُودِهِ شَكٌّ، فَإِنَّ الْفِطْرَ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِهِ،

وَمَجْبُوءَةٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ،

فَإِنَّ الْإِعْتِرَافَ بِهِ ضَرُورِيٌّ فِي الْفِطْرِ السَّلِيمَةِ،

وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِهَا شَكٌّ وَاضْطِرَابٌ،

فَتَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي الدَّلِيلِ الْمَوْصِلِ إِلَى وَجُودِهِ؛

وَلِهَذَا قَالَتْ لَهُمُ الرُّسُلُ تُرْشِدُهُمْ إِلَى طَرِيقِ مَعْرِفَتِهِ بِأَنَّهُ

{فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}

الَّذِي خَلَقَهَا وَابْتَدَعَهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ،

فَإِنَّ شَوَاهِدَ الْخُذُوثِ وَالْخَلْقِ وَالتَّسْخِيرِ ظَاهِرٌ عَلَيْهَا،

فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ صَانِعٍ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَهُهُ وَمَلِيكُهُ.

2- الْمَعْنَى الثَّانِي فِي قَوْلِهِمْ:

{أَفَى اللَّهِ شَكٌّ}

أَيْ: أَفَى إِلَهِيَّتِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِوُجُوبِ الْعِبَادَةِ لَهُ شَكٌّ،

وَهُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ،

وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛

فَإِنَّ غَالِبَ الْأُمَمِ كَانَتْ مُقَرَّرَةً بِالصَّانِعِ،
وَلَكِنْ تَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْوَسَائِطِ الَّتِي يَظُنُّونَهَا تَنْفَعُهُمْ
أَوْ تُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللَّهِ زُلْفَى.

فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين

(قَالُوا) لهم:

(إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا)

أي: فكيف تفضلوننا بالنبوة و الرسالة

(تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

فكيف نترك رأي الآباء و سيرتهم لرأيكم؟

و كيف نطيعكم و أنتم بشر مثلنا؟

(فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

أي: بحجة و بينة ظاهرة، و مرادهم بينة يقترحونها هم،

و إلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ
وَمَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرَكَ عَلَىٰ مَاءٍ أَذِيْتُمْوْنَا
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّسُلُ هُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتَنَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾
وَلَتُسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾
وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ
﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكْأُدُ يَسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ
بِمَحِيطٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَلُهُمْ
كِرَامًا ۖ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ
ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ
وَمَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرَكَ عَلَى مَاءٍ أَذِيْتُمُونَا
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

(قَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ)

مجيئين عن اقتراحهم و اعتراضهم:

(إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)

أي: صحيح و حقيقة أنا بشر مثلكم

(وَلَكِنَّ)

ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق

فَإِنْ (اللَّهُ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) ط

فإذا مَنَّ الله علينا بوحيه و رسالته،

فذلك فضله و إحسانه،

و ليس لأحد أن يحجر على الله فضله و يمنعه من تفضله.

فانظروا ما جئناكم به فإن كان حقا فاقبلوه و إن كان غير ذلك فردوه

و لا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به،

و قولكم: (فَأَثَرُنَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

فإن هذا ليس بأيدينا و ليس لنا من الأمر شيء.

(وَمَا كُنَّا لِنَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

فهو الذي إن شاء جاءكم به،
و إن شاء لم يأتيكم به و هو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته و رحمته،

(وَعَلَى اللَّهِ)

لا على غيره

(فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم و دفع مضارهم
لعلمهم بتمام كفايته و كمال قدرته و عميم إحسانه،
و يثقون به في تيسير ذلك

و بحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، و أنه من لوازم الإيمان،

و من العبادات الكبار التي يحبها الله و يرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه،

(وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ)

أي: أي شيء يمنعنا من التوكل على الله

(وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا)

و الحال أننا على الحق و الهدى،

و من كان على الحق و الهدى فإن هداه يوجب له تمام التوكل،

و كذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي و كفايته،

يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق و الهدى
 فإنه ليس ضامنا على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.
 و في هذا كالأشارة من الرسل عليهم الصلاة و السلام لقومهم بآية عظيمة،
 و هو أن قومهم - في الغالب - لهم القهر و الغلبة عليهم،
 فتحدثهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدكم و مكركم،
 و جازمون بكفايته إياهم،
 و قد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم و إطفاء ما معهم من الحق،
 فيكون هذا كقول نوح لقومه:

(يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ
 فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا
 تُنظِرُونِ) (الآيات).

و قول هود عليه السلام قال: (إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* مِنْ دُونِهِ
 فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ)
 وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا^٤)

أي و لنستمرن على دعوتكم و وعظكم و تذكيركم
 و لا نبالي بما يأتيانا منكم من الأذى
 فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى احتسابا للأجر

و نصحا لكم لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير

(وَعَلَى اللَّهِ)

وحده لا على غيره

(فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير

و اعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب و أشرف
المراتب و هو التوكل على الله في إقامة دينه و نصره و هداية عبده
و إزالة الضلال عنهم و هذا أكمل ما يكون من التوكل

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّسُلُ إِلَهُمُ لِنَخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ

ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ

﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ يُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذِبُ فِيهِ

وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴿١٧﴾ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ

لما ذكر دعوة الرسل لقومهم و دوامهم على ذلك و عدم مللهم،

ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم

فقال: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّسُلُ إِلَهُمُ)

متوعدين لهم

لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا

و هذا أبلغ ما يكون من الرد، و ليس بعد هذا فيهم مطمع،

لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى

بل توعدهم بالإخراج من ديارهم و نسبوها إلى أنفسهم

و زعموا أن الرسل لا حق لهم فيها،

و هذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض،

و أمرهم بعبادته، و سخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته.

فمن استعان بذلك على عبادة الله حل له ذلك و خرج من التبعة،

و من استعان بذلك على الكفر و أنواع المعاصي،

لم يكن ذلك خالصا له، و لم يحل له،

فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدها

الرسل بإخراجهم منها.

و إن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، و أفراد منهم،

فلأي شيء يمنعونهم حقا لهم صريحا واضحا؟!

هل هذا إلا من عدم الدين و المروءة بالكلية؟

و لهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال ما بقي حينئذ إلا أن يمضي

الله أمره، و ينصر أوليائه،

***يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَتْ بِهِ الْأُمَمُ الْكَافِرَةَ رُسُلَهُمْ،

مِنَ الْإِخْرَاجِ مَنَ أَرْضِهِمْ، وَ النَّفْيِ مَنَ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ،

كَمَا قَالَ قَوْمٌ شُعَيْبٍ لَهُ وَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ:

{لَخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا} [الأعراف: 88] ،

وَ قَالَ قَوْمٌ لُوطٍ: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [النمل: 56] ،

وَ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 76]

وَ قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: 30]

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ} كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: 171- 173] ، وَ قَالَ تَعَالَى:

{كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: 21]

وَ قَالَ: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: 105]

{فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ}

بأنواع العقوبات .

(وَلَنُصَبِّحَنَّكُمْ أَتْرَافَ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ)

أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسول و من تبعهم جزاء

(لِمَنْ خَافَ مَقَامِي)

عليه في الدنيا و راقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه،

(وَخَافَ وَعِيدِ)

أي: ما توعدت به من عصائي

فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله و المبادرة إلى ما يحبه الله .

***وَعِيدِي هَذَا لِمَنْ خَافَ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَ خَشِيَ مِنْ وَعِيدِي، وَ هُوَ تَخْوِيفِي وَ عَذَابِي،

كَمَا قَالَ تَعَالَى: { فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى
وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى }

[النَّازِعَاتِ: 37- 41]

وَ قَالَ: { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ } [الرَّحْمَنِ: 46] .

(وَأَسْتَفْتَحُوا)

أي: الكفار أي: هم الذين طلبوا و استعجلوا فتح الله و فرقانه بين أوليائه

و أعدائه فجاءهم ما استفتحوا به

و إلا فالله حلیم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة

***اَسْتَفْتَحْتَ الْاُمَمَ عَلَى اَنْفُسِهَا، كَمَا قَالُوا:

{اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْتِنَا

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: 32] .

وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُرَادًا وَ هَذَا مُرَادًا،

كَمَا أَنَّهُمْ اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ،

وَ اسْتَفْتَحَ رَسُولُ اللَّهِ وَ اسْتَنْصَرَ،

وَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ

خَيْرٌ لَكُمْ} الْآيَةُ [الأنفال: 19] وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

(وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ)

أي: خسر في الدنيا و الآخرة من تجبر

على الله و على الحق

و على عباد الله و استكبر في الأرض

(عَنِيدٍ)

و عاند الرسل و شاقهم.

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ} [ق: 24 - 26]

(مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ)

أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد، فلا بد له من ورودها فيذاق حينئذ العذاب الشديد،

(وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ)

في لونه و طعمه و رائحته الخبيثة، و هو في غاية الحرارة. ***
فِي النَّارِ لَيْسَ لَهُ شَرَابٌ إِلَّا مِنْ حَمِيمٍ أَوْ غَسَّاقٍ،
فَهَذَا فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ، وَ هَذَا فِي غَايَةِ الْبَرْدِ وَ النَّتَنِ، كَمَا قَالَ:
{ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ } [ص: 57، 58] .

(يَتَجَرَّعُهُ)

من العطش الشديد
*** يَتَغَصَّصُهُ وَ يَتَكَرَّهُهُ، أَي: يَشْرَبُهُ قَهْرًا وَ قَسْرًا،
لَا يَضَعُهُ فِي فِيهِ حَتَّى يَضْرِبَهُ الْمَلَكُ مِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ }** [الحج: 21] .

(وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ)

فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه
و إذا وصل إلى بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء،
*** يَزْدَرِدُهُ لِسُوءِ لَوْنِهِ وَ طَعْمِهِ وَ رِيحِهِ، وَ حَرَارَتِهِ أَوْ بَرْدِهِ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ.
*الميسر: فلا يستطيع أن يبتلعه؛ لقذارته و حرارته، ومرارته،

(وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب،

(وَمَا هُوَ بِمَيِّتٌ^ط)

و كل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت و لكن الله قضى أن لا يموتوا
*الميسر: و ما هو بميت فيستريح

كما قال تعالى: (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك

نجزي كل كفور وهم يصطرخون فيها)
*** يَأْتُمُّ لَهُ جَمِيعُ بَدَنِهِ وَ جَوَارِحِهِ وَ أَعْضَائِهِ.

(وَمِنْ وَرَائِهِ)

أي: الجبار العنيد

*** و "وراء" ها هنا مَعْنَى "أَمَامُ"، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الْكَهْفِ: 79]

وَ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرُؤُهَا (وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ)

أَيُّ: مِنْ وَرَاءِ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ جَهَنَّمُ،
أَيُّ: هِيَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ، يَسْكُنُهَا مُخَلَّدًا يَوْمَ الْمَعَادِ،
وَ يُعْرَضُ عَلَيْهَا غَدَا وَ عَشِيَا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ.

(عَذَابٌ غَلِيظٌ^ط)

أي: قوي شديد لا يعلم وصفه و شدته إلا الله تعالى.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ^ط

لَا يَقْدِرُونَ مَتَا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ^ط أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ)

يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها:

إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله،

بأنها في ذهابها و بطلانها و اضمحلالها كاضمحلال الرماد،

الذي هو أدق الأشياء و أخفها،

إذا (أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ^ط)

شديد الهبوب،

فإنه لا يبقى منه شيئا، و لا يقدر منه على شيء يذهب و يضمحل،

فكذلك أعمال الكفار

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}

[الفرقان: 23]

(لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ^ط)

و لا على مثل ذرة منه لأنه مبني على الكفر و التكذيب.

*الميسر: ذلك السعي و العمل على غير أساس،

(ذَلِكَ هُوَ الصَّلَإُ الْبَعِيدُ)

حيث بطل سعيهم و اضمحل عملهم،

و إما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها ليكيدوا بها الحق،

فإنهم يسعون و يكدحون في ذلك

و مكرهم عائد عليهم
و لن يضروا الله و رسله و جنده و ما معهم من الحق شيئاً.

الَّتِ تَرَأَتْ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ
 (١١) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٤٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا

كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ
 لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٤١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ
 لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي
 عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۚ مَا
 أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ۚ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ
 الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ
 ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤٤﴾

الَّتِ تَرَأَتْ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ
 (١١) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٤٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا

كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ
 لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٤١﴾

(الَّذِينَ تَرَأَتِ الْآلِهَةَ) يَنْبَهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَنَّهُ

(خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ^ع)

1- لِيَعْبُدَهُ الْخَلْقُ وَ يَعْزُرُوهُ،

2- وَيَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ

3- وَلِيَسْتَدْلُوا بِهِمَا وَ مَا فِيهِمَا عَلَى مَا لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ،

و لِيَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ - عَلَى عَظَمَتِهِمَا وَ سَعَتِهِمَا -

قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا،

لِيَجْازِيَهُمْ بِإِحْسَانِهِمْ وَ إِسَاءَتِهِمْ،

و أَنَّ قُدْرَتَهُ وَ مَشِيئَتَهُ لَا تَقْصُرُ عَنْ ذَلِكَ

***{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْنَىٰ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ

عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الْأَحْقَافِ: 33]

و لهذا قَالَ: (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

1- يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمَعْنَى:

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ يَكُونُونَ أَطُوعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ،

2- وَ يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ: إِنْ يَشَأْ يُفْنِيكُمْ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ بِالْبَعْثِ خَلْقًا جَدِيدًا،

وَ يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْإِحْتِمَالِ مَا ذَكَرَهُ بَعْدَهُ مِنْ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ.

(وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

أي: بممتنع بل هو سهل عليه جدا،

(مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)

***كقوله: {وَأِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}

[مُحَمَّدٌ: 38]

(وَبَرَزُوا)

أي: الخلاق

***اجْتَمَعُوا لَهُ فِي بَرَازٍ مِنَ الْأَرْضِ،
وَ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَسْتُرُ أَحَدًا.

(لِلَّهِ جَمِيعًا)

حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأحداث إلى ربهم
فيقفون في أرض مستوية قاع صفصف، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا،
و يبرزون له لا يخفى عليه منهم خافية،
فإذا برزوا صاروا يتحاجون،
و كل يدفع عن نفسه، و يدافع ما يقدر عليه، و لكن أنى لهم ذلك؟

فيقول (فَقَالَ الضُّعَفَاءُ)

أي: التابعون و المقلدون

(لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا)

و هم: المتبوعون الذين هم قادة في الضلال:

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا)

أي: في الدنيا، أمرتمونا بالضلال، و زينتموه لنا فأغويتمونا،

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

أي: و لو مثقال ذرة،

(قَالُوا)

أي: المتبوعون و الرؤساء

{وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ 30 فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ

رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ} [الصفافات: 30 - 32]

و (لَوْ هَدَّيْنَاهُ اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ)

فلا يغني أحد أحدا،

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا)

من العذاب

(أَمْ صَبَرْنَا)

عليه،

(مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ)

أي: من ملجأ نلجأ إليه، و لا مهرب لنا من عذاب الله.

***قُلْتُ: وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْمَرَاجَعَةَ فِي النَّارِ بَعْدَ دُخُولِهِمْ إِلَيْهَا،

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} [غَافِر: 47، 48]

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ

فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي

وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا

أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ

نَحْنُ مُعْتَمِدِينَ ﴿٢٣﴾

***يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَطَبَ بِهِ إِبْلِيسُ لَعْنَهُ اللَّهُ أَتْبَاعَهُ،

بَعْدَ مَا قَضَى اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، فَأَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّاتِ،

وَأَسْكَنَ الْكَافِرِينَ الدَّرَكَاتِ،

فَقَامَ فِيهِمْ إِبْلِيسُ -لَعْنَهُ اللَّهُ- حِينئِذٍ خَطِيبًا لِيَزِيدَهُمْ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ

وَوَعَبًا إِلَى غَبْنِهِمْ، وَحَسْرَةً إِلَى حَسْرَتِهِمْ،

فَقَالَ: {إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ}

أَيُّ: عَلَى أَلْسِنَةِ رَسُولِهِ، وَوَعَدَكُمْ فِي اتِّبَاعِهِمُ النَّجَاةَ وَالسَّلَامَةَ،

وَكَانَ وَعْدًا حَقًّا، وَخَبْرًا صَدَقًا،

وَأَمَّا أَنَا فَوَعَدْتُكُمْ وَأَخْلَفْتُكُمْ،

كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} [النِّسَاء: 120] .

أي: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ)

الذي هو سبب لكل شر يقع و وقع في العالم، مخاطبا لأهل النار و متبرئا منهم

(لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ)

و دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار .

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ)

على السنة رسله فلم تطيعوه، فلو أطمعتموه لأدرتكم الفوز العظيم،

(وَوَعَدْتُكُمْ)

الخير

(فَأَخْلَفْتُكُمْ^ط)

أي: لم يحصل و لن يحصل لكم ما منيتكم به من الأمانى الباطلة.

(وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

أي: من حجة على تأييد قولي،

(إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ)

أي: هذا نهاية ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي و زينته لكم،

(فَأَسْتَجِبْكُمْ^ط)

اتباعاً لأهوائكم و شهواتكم،
فإذا كانت الحال بهذه الصورة

(فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

فأنتم السبب و عليكم المدار في موجب العقاب،

(مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ)

أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيكَ)

كل له قسط من العذاب.

(إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

أي: تبرأت من جعلكم لي شريكاً مع الله فلست شريكاً لله و لا تجب طاعتي،

*** إِنِّي جَحَدْتُ أَنْ أَكُونَ شَرِيكاً لِلَّهِ، عز وجل.

و هذا الذي قال هُوَ الرَّاجِحُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ

دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}

[الْأَحْقَافِ: 5، 6]

و قَالَ: **{كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا}** [مَرْيَمَ: 82] .

(إِنَّ الظَّالِمِينَ)

لأنفسهم بطاعة الشيطان

(لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

خالدين فيه أبداً.

و هذا من لطف الله بعباده ،أن حذرهم من طاعة الشيطان
و أخبر بمدخله التي يدخل منها على الإنسان و مقاصده فيه،
و أنه يقصد أن يدخله النيران،
و هنا بين لنا أنه إذا دخل النار و حربه أنه يتبرأ منهم هذه البراءة،
و يكفر بشركهم

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

و اعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان،
و قال في آية أخرى

(إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة و الدليل،
فليس له حجة أصلاً على ما يدعو إليه،
و إنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه و التزيينات ما به يتجرؤون على
المعاصي.

و أما السلطان الذي أثبتته فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يؤزهم
إلى المعاصي أژاً،

و هم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته و الالتحاق بحزبه،

و لهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا و على ربهم يتوكلون.
و لما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب الطائعين فقال

(وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أي: قاموا بالدين، قولاً و عملاً و اعتقاداً

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

فيها من اللذات و الشهوات ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت،
و لا خطر على قلب بشر،

(خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ)

أي: لا بحولهم و قوتهم بل بحول الله و قوته

(يَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ)

أي: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام و التحية و الكلام الطيب.

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ

عَلَيْكُمْ} [الزُّمَرِ: 73]

و قَالَ تَعَالَى: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}

[الرَّعْدِ: 23، 24]

و قَالَ تَعَالَى: {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} [الْفُرْقَانِ: 75]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ

وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً)

و هي شهادة أن لا إله إلا الله، و فروعها

(كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ)

و هي النخلة

*** وَ هُوَ الْمُؤْمِنُ

*** هي شجرة في الجنة

(أَصْلُهَا ثَابِتٌ)

في الأرض

*** يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ

(وَفَرَعُهَا)

منتشر

(فِي السَّمَاءِ)

*** يَقُولُ: يُرْفَعُ بِهَا عَمَلُ الْمُؤْمِنِ إِلَى السَّمَاءِ.

و هي كثيرة النفع دائما .

*** وَ هَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ، وَ غَيْرَ وَاحِدٍ:

إِنَّ ذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمُؤْمِنِ، وَ قَوْلِهِ الطَّيِّبِ، وَ عَمَلِهِ الصَّالِحِ،

وَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ كَالشَّجَرَةِ مِنَ النَّخْلِ،

لَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ فِي كُلِّ حِينٍ وَ وَقْتُ، وَ صَبَاحٍ وَ مَسَاءٍ.

*** صحيح البخاري

4698 - عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ:

كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشَبِّهُ أَوْ: كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا،

و لَا وَ لَا وَ لَا تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ،

و رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَ عُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ،

فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا،

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ»

فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أَبَتَاهُ،

و اللَّهُ لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ،

فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكَلَّمَ؟

قَالَ: لَمْ أَرَكُم تَكَلِّمُونَ،

فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئًا،

قَالَ عُمَرُ: لِأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا ()

(يتحات) يتساقط ويتناثر.

(ولا ولا ولا) تكرار للكلمة لا ثلاث مرات وأشار بهذا إلى ثلاث صفات آخر للنخلة ذكرها رسول الله ﷺ ولم يذكرها الراوي.

(تؤتي.) لا ينقطع ثمرها ولا يتأخر عن وقته.

(من كذا وكذا) أي من حمر النعم كما صرح به في رواية أخرى]

تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ

مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا

نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ الْقَرَارَ ﴿٢٩﴾

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ

يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي

الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۚ

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ

اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٣٦﴾

(تُؤْتِي أَكْلَهَا) أي: ثمرتها

(كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)

فكذلك شجرة الإيمان ، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علما و اعتقادا.
و فرعها من الكلم الطيب و العمل الصالح و الأخلاق المرضية،
و الآداب الحسنة في السماء
دائما يصعد إلى الله منه من الأعمال و الأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان
ما ينتفع به المؤمن و ينفع غيره،

(وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

ما أمرهم به و نهاهم عنه،
فإن في ضرب الأمثال تقريبا للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة،
و يتبين المعنى الذي أراده الله غاية البيان، و يتضح غاية الوضوح،
و هذا من رحمته و حسن تعليمه.
فلله أتم الحمد و أكمله و أعمه،
فهذه صفة كلمة التوحيد و ثباتها، في قلب المؤمن.
ثم ذكر ضدها و هي كلمة الكفر و فروعها فقال:

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ)

المأكل و المطعم و هي: شجرة الحنظل و نحوها،
(أَجْتُثَّتْ) هذه الشجرة

(مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

أي: من ثبوت فلا عروق تمسكها، و لا ثمرة صالحة، تنتجها،
بل إن وجد فيها ثمرة، فهي ثمرة خبيثة،
كذلك كلمة الكفر و المعاصي،
ليس لها ثبوت نافع في القلب،
و لا تثمر إلا كل قول خبيث و عمل خبيث يستضر به صاحبه،
و لا ينتفع، فلا يصعد إلى الله منه عمل صالح
و لا ينفع نفسه،
و لا ينتفع به غيره.

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ^ط

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ^ج وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ^{٢٧}

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ^ط)

*جاء في الصحيح المسند من أسباب النزول:

سنن النسائي

2057 - عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

[إبراهيم: 27]،

قَالَ: " نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ،

يُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِي دِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ،
فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

{الْآخِرَةِ} [إبراهيم: 27]

*** وَ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ:

{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}

قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،

{وَفِي الْآخِرَةِ}

الْمَسْأَلَةُ فِي الْقَبْرِ .

*** سنن أبي داود

3221 - عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، قَالَ:

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، إِذَا فَرَّغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ،
فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَ سَلُّوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ،
فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»

○ يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين،

أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام،

الذي يستلزم أعمال الجوارح و يثمرها،

فيثبتهم الله في الحياة الدنيا :-

1- عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين،

2-و عند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس و مراداتها.

و في الآخرة :-

1-عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي و الخاتمة الحسنة،

2-و في القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح،

إذا قيل للميت « من ربك؟ و ما دينك؟ و من نبيك؟ »

هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن:

« الله ربي و الإسلام ديني و محمد نبي »

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ^ط (

عن الصواب في الدنيا و الآخرة،

و ما ظلمهم الله و لكنهم ظلموا أنفسهم،

و في هذه الآية دلالة على فتنة القبر و عذابه، و نعيمه،

كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة، و صفتها، و نعيم القبر

و عذابه.

(وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)

*الميسر: من توفيق أهل الإيمان و خذلان أهل الكفر و الطغيان.

﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ آحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾

جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيُنْسِئُ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ^ط

قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى - مينا حال المكذبين لرسوله من كفار قريش و ما آل إليه أمرهم:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا)

*الميسر :الذين استبدلوا الكفر بالله بدلا عن شكره على نعمة

الأمن بالحرم و بعثة النبي محمد ﷺ فيهم

○ و نعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم،

يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا و الآخرة و إلى النجاة من شرور الدنيا

و الآخرة،

*** صحيح البخاري

4700 -عن ابن عَبَّاسٍ،

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا } [إبراهيم: 28]

قَالَ: «هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ»

*** وَ هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الصَّحِيحُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ

وَ إِنْ كَانَ الْمَعْنَى يَعُمُّ جَمِيعَ الْكُفَّارِ

*** قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ: أَنَّ ابْنَ الْكَوَّاءِ سَأَلَ عَلِيًّا عَنْ

{ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ }

قَالَ: كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ.

○ فبدلوا هذه النعمة بردها، و الكفر بها و الصد عنها بأنفسهم.

(و) صداهم غيرهم حتى

(وَأَحْلَوْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)

***الهلاك

و هي النار حيث تسبوا لإضلالهم، فصاروا وبالا على قومهم،
من حيث يظن نفعهم،

و من ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم « بدر » ليحاربوا الله و رسوله،
فجرى عليهم ما جرى، و قتل كثير من كبرائهم و صناديدهم في تلك الواقعة.

(جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا)

أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم

(وَيُنْسُ الْقَرَارُ)

*الميسر: و قُبْحَ المستقر مستقرهم

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا)

أي: نظراء و شركاء

(لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ)

أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد
و دعوهم إلى عبادتها،

(قُلْ) لهم متوعدا:

(تَمَتَّعُوا)

بكفركم و ضلالكم قليلا فليس ذلك بنافعكم

(فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

أي: مآلكم و مقركم و مأواكم فيها و بئس المصير .

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ

أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا)

المؤمنين آمرا لهم بما فيه غاية صلاحهم و أن ينتهزوا الفرصة،
قبل أن لا يمكنهم ذلك:

(يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

ظاهرا و باطنا

(وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلا أو كثيرا

(سِرًّا وَعَلَانِيَةً)

و هذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة و نفقة من تجب عليه نفقته،
و المستحبة كالصدقات و نحوها .

(مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ)

***القيامة

(لَا بَيْعٌ فِيهِ)

أي: لا ينفع فيه شيء ولا سبيل إلى استدراك ما فات لا بمعاوضة بيع و شراء

(وَلَا خِلَالٌ)

و لا بهبة خليل و صديق،

فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه،

و لينظر ما قدمه لغد، و ليتفقد أعماله، و يحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

*** كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الحديد: 15] .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ

الشَّجَرِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ

الْأَنْهَارَ ۝۳۲ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝۳۳

يخبر تعالى: أنه وحده

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)

على اتساعهما و عظمهما،

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)

و هو: المطر الذي ينزله الله من السحاب،

(فَأَخْرَجَ بِهِ)

بذلك الماء

(مِنَ الثَّمَرَاتِ)

المختلفة الأنواع

(رِزْقًا لَّكُمْ)

و رزقا لأنعامكم

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ)

أي: السفن و المراكب.

(لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)

فهو الذي يسر لكم صنعتها و أقدركم عليها،

و حفظها على تيار الماء لتحملكم،

و تحمل تجاراتكم، و أمتعتكم إلى بلد تقصدونه.

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)

لتسقي حروثكم و أشجاركم و تشربوا منها.

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ)

لا يفتران، و لا ينيان، يسعيان لمصالحكم،

من حساب أزمntكم و مصالح أبدانكم، و حيواناتكم، و زروعكم، و ثماركم،

*** {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ} [يس: 40]

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ)

لتسكنوا فيه

(وَالنَّهَارَ)

مبصرا لتبتغوا من فضله.

وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسٍ ثَمْوُهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضِلُّونَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ دَلِيلٌ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفِلًا غَمًّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ

لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾

وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسٍ ثَمْوُهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

(وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسٍ ثَمْوُهُ)

أي: أعطاكم من كل ما تعلق به أمانيتكم و حاجتكم مما تسألونه إياه

بلسان الحال، أو بلسان المقال،
من أنعام، و آلات، و صناعات و غير ذلك.

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا)

فضلا عن قيامكم بشكرها

***وَ قَالَ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُؤَدِّي شُكْرُ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِهِ، إِلَّا بِنِعْمَةٍ
تُوجِبُ عَلَى مُؤَدِّي مَاضِي نِعْمِهِ بَادَأِئَهَا، نِعْمَةً حَادِثَةً تُوجِبُ عَلَيْهِ شُكْرَهُ بِهَا .

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ)

أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرئ على المعاصي مقصر في
حقوق ربه

(كَفَّارٌ)

لنعم الله، لا يشكرها و لا يعترف بها إلا من هداه الله فشكر نعمه،
و عرف حق ربه و قام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم،
مجمل و مفصل يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره،
و ذكره و يحثهم على ذلك،

و يرغبهم في سؤاله و دعائه، آناء الليل و النهار،
كما أن نعمه تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾

أي: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ)

اذكر إبراهيم عليه السلام في هذه الحالة الجميلة،

(وَإِذْ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ)

أي: الحرم

(ءَامِنًا)

فاستجاب الله دعاءه شرعا و قدرا،

فحرمه الله في الشرع و يسر من أسباب حرمة قدرها ما هو معلوم،
حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل و غيرهم.

*** وَ قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا

وَيُحَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [الْعَنْكَبُوتِ: 67]

و لما دعا له بالأمن دعا له و لبنيه بالأمن فقال:

(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

أي: اجعلني و إياهم جانبا بعيدا عن عبادتها و الإلمام بها،

*** يَنْبَغِي لِكُلِّ دَاعٍ أَنْ يَدْعُوَ لِنَفْسِهِ وَ لِوَالِدَيْهِ وَ لِذُرِّيَّتِهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ افْتَتَحَ بِالْأَصْنَامِ خَلَائِقُ مِنَ النَّاسِ وَ أَنَّهُ بَرِيٌّ مِمَّنْ عَبَدَهَا،
وَ رَدَّ أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ

كَمَا قَالَ عِيسَى عليه السلام: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ} [المائدة: 118]

وَلَيْسَ فِي هَذَا أَكْثَرُ مِنَ الرَّدِّ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى،
لَا تَجْوِيزٌ وَقُوعٌ ذَلِكَ.

ثم ذكر الموجب لخوفه عليه و على بنيه بكثرة من افتن و ابتلي بعبادتها
فقال:

رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ^طفَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ^طوَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ



(رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ^ط)

ضلوا بسببها،

*** صحيح مسلم

(202) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ:

تَلَا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: {رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ

تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} [إبراهيم: 36] الآية،

وَقَالَ عليه السلام: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ} [المائدة: 118]

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»،

وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

«يَا جَبْرِيلُ عليه السلام اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟»

فَاتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَ هُوَ أَعْلَمُ،
فَقَالَ اللَّهُ: " يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ،
فَقُلْ: إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَ لَا نَسُوءُكَ ()

(فَمَنْ تَبَعَنِي)

على ما جئت به من التوحيد و الإخلاص لله رب العالمين

(فَإِنَّهُ مِنِّي)

لتمام الموافقة و من أحب قوما و تبعهم التحق بهم.

(وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

و هذا من شفقة الخليل عليه السلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة و الرحمة من الله
و الله تبارك و تعالى أرحم منه بعباده لا يعذب إلا من تمرد عليه.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ

فَأَجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

و ذلك أنه أتى بـ « هاجر » أم إسماعيل و بابنها إسماعيل عليه السلام

و هو في الرضاع، من الشام حتى وضعهما في مكة

و هي - إذ ذاك - ليس فيها سكن، و لا داع و لا مجيب،

(وقال عيسى) قال القاضي عياض قال بعضهم قال هو اسم للقول لا فعل يقال قال قولاً
وقالاً وقيلاً كأنه قال وتلا قول عيسى (إنا سنرضيك) هذا موافق لقول الله عز وجل ولسوف
يعطيك ربك فترضى]

فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء

فقال - متضرعا متوكلا على ربه: **(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي)**

أي: لا كل ذريتي لأن إسحاق في الشام و باقي بنيه كذلك
و إنما أسكن في مكة إسماعيل و ذريته،

و قوله: **(يَوَادِّ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ)**

أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة.

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة

لأن إقامة الصلاة من أخص و أفضل العبادات الدينية
فمن أقامها كان مقيما لدينه

(فَأَجْعَلِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ)

***لَوْ قَالَ: "أُمَّةً النَّاسِ" لَأَزْدَحَمَ عَلَيْهِ فَارِسُ وَالرُّومُ وَ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى
وَ النَّاسُ كُلُّهُمْ،

وَ لَكِنْ قَالَ: {مِنَ النَّاسِ} فَاخْتَصَّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ.

(تَهْوِي إِلَيْهِمْ)

أي: تحبهم و تحب الموضع الذي هم ساكنون فيه.

فأجاب الله دعاءه فأخرج من ذرية إسماعيل محمدا ﷺ

حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي

و إلى ملة أبيهم إبراهيم فاستجابوا له و صاروا مقيمي الصلاة.
 و افترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم
 و جعل فيه سرا عجيبا جاذبا للقلوب،
 فهي تحجه و لا تقضي منه وطرا على الدوام،
 بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه و عظم ولعه و توقه
 و هذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة.

(وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

فأجاب الله دعاءه، فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء،
 فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت و الثمار فيها متوفرة
 و الأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾

أي: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تدبيرك و تربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور
 التي نعلمها و التي لا نعلمها ما هو مقتضى علمك و رحمتك

(وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

و من ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير
 و كثرة الشكر لله رب العالمين.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾
(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ^ع)

فهبتهم من أكبر النعم،
و كونهم على الكبر في حال الإياس من الأولاد نعمة أخرى،
و كونهم أنبياء صالحين أجل و أفضل،

(إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)

أي: لقريب الإجابة ممن دعاه و قد دعوته فلم يخيب رجائي،
ثم دعا لنفسه و لذريته، فقال:

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

فاستجاب الله له في ذلك كله إلا أن دعاءه لأبيه
إنما كان عن موعدة وعده إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه
ثم قال تعالى

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ^ع

إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾

هذا وعيد شديد للظالمين، و تسلية للمظلومين،

يقول تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ)

***يا محمد

(اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ^٤)

حيث أمهلهم و أدرَّ عليهم الأرزاق،
و تركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين،
فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم
فإن الله يملي للظالم و يمهلهم ليزداد إثما،
حتى إذا أخذه لم يفله

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

و الظلم - هاهنا- يشمل الظلم فيما بين العبد و ربه و ظلمه لعباد الله.

(إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

أي: لا تطرف من شدة ما ترى من الأهوال و ما أزعجها من القلاقل.

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ
 يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنا مِنْ هَـؤُلَاءِ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ
 الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ
 فِي مَسْكَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
 لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ
 مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ
 عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ
 الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ
 قَطَرَانٍ وَتَعْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ
 وَلِيَذَّكَّرُوا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾
 (مُهْطِعِينَ)

أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله
 للحساب لا امتناع لهم و لا محيص و لا ملجأ،

*** كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [الْقَمَرِ: 8]

وَقَالَ تَعَالَى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} إِلَى قَوْلِهِ:

{وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا} [طه: 111- 198]

وَقَالَ تَعَالَى: {يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} [الْمَعَارِج: 43] .

{مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ}

أي: رافعيها قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رءوسهم،

{لَا يَرْتَدُّ الَّذِينَ مَرَّوهُمْ}

*** بَلْ أَبْصَارُهُمْ طَائِرَةٌ شَاحِصَةٌ،

يُدِيمُونَ النَّظَرَ لَا يَطْرَفُونَ لِحِظَةٍ لِكَثْرَةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْهَوْلِ وَالْفِكْرَةِ
وَالْمَخَافَةِ لِمَا يَحِلُّ بِهِمْ، عِبَادًا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنْ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ:

{وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً}

أي: أفندتهم فارغة من قلوبهم قد صعدت إلى الحناجر

لكنها مملوءة من كل هم و غم و حزن و قلق

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ

نُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَئِكَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ

زَوَالِ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ
كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمْتَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ)

أي: صف لهم صفة تلك الحال و حذرهم من الأعمال الموجبة للعذاب الذي
حين يأتي في شدائده و قلاقله،

(فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا)

بالكفر و التكذيب و أنواع المعاصي نادمين على ما فعلوا سائلين للرجعة في
غير وقتها

(رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ)

أي: ردنا إلى الدنيا فإننا قد أبصرنا،

***كَمَا قَالَ تَعَالَى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ
صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
[الْمُؤْمِنُونَ: 99، 100]

وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ
اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ

أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ
مِنَ الصَّالِحِينَ { [الْمَنَافِقُونَ: 9، 10]

وَقَالَ تَعَالَى مُخَبِّرًا عَنْهُمْ فِي حَالِ مَحْشَرِهِمْ: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو
رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ
[السَّجْدَةِ: 12]

وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ
رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا
لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الْأَنْعَام: 27، 28]

وَقَالَ تَعَالَى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا
نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} [فَاطِرٍ: 37] .

(مُحِبِّ دَعْوَتِكَ)

و الله يدعو إلى دار السلام

(وَنَسِجَ الرُّسُلِ)

و هذا كله لأجل التخلص من العذاب

و إلا فهم كذبة في هذا الوعد

{ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [الأنعام: 28]

و لهذا يوبخون و يقال لهم:

(أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ)

عن الدنيا و انتقال إلى الآخرة،

فها قد تبين حثكم في إقسامكم، و كذبكم فيما تدعون،

*****كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ تَعَالَى: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ**

بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا} [النحل: 38] .

(و) ليس عملكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل

(وَكَانْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا

بِهِمْ)

من أنواع العقوبات؟

و كيف أحل الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البينات،

*****قَدْ رَأَيْتُمْ وَبَلَّغَكُمْ مَا أَحْلَلْنَا بِالْأَمِّ الْمُكَذِّبَةِ قَبْلَكُمْ،**

وَمَعَ هَذَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِيهِمْ مُعْتَبَرٌ،

وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا أَوْقَعْنَا بِهِمْ مُزْدَجَرٌ لَكُمْ

{حِكْمَةٌ بِالْعِثَّةِ فَمَا تُغْنِ الشُّذُرُ} [القمر: 5] .

(وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ)

الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته،

فلم تنفع فيكم تلك الآيات

بل أعرضتم و دتمتم على باطلكم حتى صار ما صار،

و وصلتكم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.

(وَقَدْ مَكَّرُوا)

أي: المكذبون للرسل

(مَكَّرَهُمْ)

الذي وصلت إرادتهم و قدر لهم عليه،
*الميسر: و قد دبرَ المشركون الشرَّ للرسول ﷺ بقتله،

(وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

أي: هو محيط به علما و قدرة فإنه عاد مكرهم عليهم

{ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ } [فاطر: 43]

(وَلِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

أي: و لقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق

و بمن جاء به - من عظمه- لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها،

أي: (مَكَّرُوا مَكْرًا كُبْرًا)

لا يقادر قدره و لكن الله رد كيدهم في نحورهم.

و يدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسل لينصر باطلا أو يبطل حقا،

و القصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئا،

و لم يضرروا الله شيئا و إنما ضرروا أنفسهم.

*الميسر: و ما كان مكرهم لتزول منه الجبال ولا غيرها لضعفه

و وَهْنَهُ،

*** وَ رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:

{وَأِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}

يَقُولُ: مَا كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ.

وَوَجَّهَهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَشِرْكِهِمْ بِهِ، مَا ضَرَّ ذَلِكَ شَيْئًا مِنَ الْجِبَالِ وَلَا غَيْرِهَا، وَإِنَّمَا عَادَ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

قُلْتُ: وَيُسَبِّهُ هَذَا إِذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ

الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} [الْإِسْرَاءِ: 37].

وَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي تَفْسِيرِهَا:

*** عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: {وَأِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}

يَقُولُ شِرْكُهُمْ،

كَقَوْلِهِ: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ

دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا} [مَرْيَمَ: 90-91]

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفًا وَعَدِمَهُ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ

غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ

مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾

هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ

وَلْيَذْكُرُوا الْأَنْبِيَاءَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: (**فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ**)

بنجاتهم و نجاة أتباعهم و سعادتهم و إهلاك أعدائهم و خذلانهم في الدنيا
و عقابهم في الآخرة،

فهذا لا بد من وقوعه لأنه، وعد به الصادق قولاً على السنة أصدق خلقه
و هم الرسل، و هذا أعلى ما يكون من الأخبار،

خصوصاً و هو مطابق للحكمة الإلهية، و السنن الربانية، و للعقول الصحيحة،
و الله تعالى لا يعجزه شيء فإنه (**إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**)

أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته و لا يعجزه،

و ذلك في يوم القيامة، (**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**)

تبدل غير السماوات، و هذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات،

فإن الأرض يوم القيامة تسوى و تمد كمد الأديم

و يلقي ما على ظهرها من جبل و معلّم،

فتصير قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً و لا أمتاً،

و تكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم

ثم يطوبها الله - تعالى - بيمينه.

*** صحيح البخاري

6521 - عن سَهْلَ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقَرْصَةِ نَقِيٍّ»
قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ: «لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ» ()

***صحيح مسلم

(2791) عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم: 48]

فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

فَقَالَ: «عَلَى الصِّرَاطِ»

***مسند أحمد ط الرسالة

24856- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَتَدْرِي مَا سِعَةُ جَهَنَّمَ؟

قُلْتُ: لَا، قَالَ: أَجَلٌ، وَاللَّهِ مَا تَدْرِي،

إِنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنٍ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ خَرِيفًا،

تَجْرِي فِيهَا أَوْدِيَةُ الْقَيْحِ وَالدِّمِّ،

قُلْتُ: أَنَهَارًا؟

قَالَ: لَا، بَلْ أَوْدِيَّةٌ،

ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا سِعَةُ جَهَنَّمَ؟

قُلْتُ: لَا، قَالَ: أَجَلٌ، وَاللَّهِ مَا نَدْرِي،

حَدَّثَنِي عَائِشَةُ أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ:

{وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر: 67]

فَأَيْنَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: " هُمْ عَلَى حِسْرِ جَهَنَّمَ "

(عفراء) بيضاء مشوبة بحمرة. (كقرصة نقي) كرهيف مصنوع من دقيق خالص من الغش والنخالة. (معلم) علامة يستدل بها أي مستوية لا حذب فيها ولا بناء عليها ولا شيء سواه]

***صحيح مسلم

(315) عن ثوبان مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُ قَالَ:
كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ
فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا
فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟
فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ،
فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ.
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي»
فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ،
فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟»
قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنِي، فَنَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعُودٍ مَعَهُ،
فَقَالَ: «سَلْ» فَقَالَ الْيَهُودِيُّ:
أَيَنْ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ»

(وَبَرَزُوا)

أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم في محل لا يخفى منهم
على الله شيء،

(لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

أي: المتفرد بعظمته و أسمائه و صفاته و أفعاله العظيمة، و قهره لكل العوالم
فكلها تحت تصرفه و تدبيره،
فلا يتحرك منها متحرك، و لا يسكن ساكن إلا بإذنه.

(وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ)

أي: الذين وصفهم الإجماع و كثرة الذنوب،

(يَوْمَئِذٍ) في ذلك اليوم

(مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار

فيقادون إلى العذاب في أذل صورة و أشنعها و أبشعها.

***بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَدْ جُمِعَ بَيْنَ النَّظَرِ أَوِ الْأَشْكَالِ مِنْهُمْ،
كُلٌّ صِنْفٌ إِلَى صِنْفٍ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [الصَّافَّاتِ: 22] ،

وَ قَالَ: {وَإِذَا الثُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التَّكْوِينِ: 7] ،

وَ قَالَ: {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} [الْفُرْقَانِ: 13]

وَ قَالَ: {وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ}

[ص: 37، 38] .

(سَرَابِلُهُمْ)

أي: ثيابهم

(مِّنْ فَطْرَانِ)

و ذلك لشدة اشتعال النار فيهم و حرارتها و نتن ريحها،

***وَ هُوَ الَّذِي تُهْنَأُ بِهِ الْإِلِلُ، أَي: تُطَلَّى، وَ هُوَ أَلْصَقُ شَيْءٍ بِالنَّارِ.

(وَنَفْسٍ وَجُوهِهِمْ)

التي هي أشرف ما في أبدانهم

(النَّارُ)

أي: تحيط بها و تصلاها من كل جانب،

و غير الوجوه من باب أولى و أخرى،

و ليس هذا ظلما من الله لهم

و إنما هو جزاء لما قدموا و كسبوا،

*** كَهَوْلِهِ: { تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ } [الْمُؤْمِنُونَ: 104]

صحيح مسلم

(934) عن أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ، حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهَا:

1- الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ،

2- وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ،

3- وَالْاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ،

4- وَالنِّيَاحَةُ "

وَقَالَ: «النَّايِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبَقْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» ()

(أربع) أي خصال أربع كائنة في أمتي من أمور الجاهلية (لا يتركونها) أي كل الترك إن تتركه طائفة يفعلها آخرون (والاستسقاء بالنجوم) يعني اعتقادهم نزول المطر بسقوط نجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من المشرق كما كانوا يقولون مطرنا بنوء كذا (ودرع من

و لهذا قال تعالى: (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ^٤)

من خير و شر بالعدل و القسط الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

*** كما قَالَ: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}
[النَّجْم: 31]

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

1- كقوله تعالى: (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون)
[الانبياء : 1]

2- و يحتمل أن معناه: سريع المحاسبة فيحاسب الخلق في ساعة واحدة،

كما يرزقهم و يدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة

لا يشغله شأن عن شأن و ليس ذلك بعسير عليه.

*** وَ إِنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهِ كَالْوَاحِدِ مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

{مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً} [لُقْمَانَ: 28]

○ فلما بين البيان المبين في هذا القرآن قال في مدحه:

(هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ)

جرب) يعني يسلط على أعضائها الجرب والحكة بحيث يغطي بدنها تغطية الدرع وهو القميص]

أي: يتبلغون به و يتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات و أفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول و الفروع، و جميع العلوم التي يحتاجها العباد.

*** كَقَوْلِهِ: {لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: 19]

(وَلْيُنْذِرُوا بِهِ)

لما فيه من الترهيب من أعمال الشر و ما أعد الله لأهلها من العقاب،
*** لِيَتَّعِظُوا بِهِ،

(وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ)

حيث صرف فيه من الأدلة و البراهين على ألوهيته و وحدانيته،
ما صار ذلك حق اليقين،

*** أَي: يَسْتَدِلُّوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَ الدَّلَالَاتِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

(وَلْيَذْكُرُوا الْأَنْبِيَاءَ)

أي: العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه، و ما يضرهم فيتركونه،

و بذلك صاروا أولي الألباب و البصائر.

إذ بالقرآن ازدادت معارفهم و آراؤهم،

و تنورت أفكارهم لما أخذوه غصًا طريًا

فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق و الأعمال و أفضلها،

و لا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة و أبينها.

و هذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي لم يزل في صعود و رقي على الدوام
في كل خصلة حميدة.

و الحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل عليه السلام